الموازنة بين الدوال الصوتية والإشارية في التراث والدرس اللغوي الحديث

أ.م.د. علي محسن بادي
كلية التربية الأساسية / جامعة سومر
a.badi@uos.edu.iq

(مُلَخَّصُ البَحث)

عنيت هذه الدراسة بتتبع الجهود القديمة والحديثة التي وازنت بين اللغة الصوتية ولغة الإشارة في حيز واحد ، أي إن حدودها موقوفة على مواضع اقتران البحث في الصوت بالبحث في الإشارة عند استقلال كل منهما بدلالة واضحة دون المباحث التي اختصت بكل واحد منهما على حدة ، لِما قدَّرناه من تميُّز هذا الأسلوب في إظهار جوهر الحقيقة اللغوية التي يتسع مداها ليشمل كل دال يلجأ إليه الإنسان في التعبير عما يزدحم به وجوده من دلالات سواء أكان الدال صوتا أم إشارة بشتى أشكال الإشارة . والقديم هنا محدود بالتراث العربي الإسلامي لا التراث الإنساني بنحو عام ، ومن أعلامه المشهورين الذين كانت لهم آراء ومواقف من موضوع البحث تستحق المتابعة : الجاحظ ، وأبو حيان التوحيدي ، ومسكويه ، والقاضي عبد الجبار المعتزلي وغيرهم ، أما الحديث فمطلق في العرب وسواهم ، ومن أشهر أعلام العرب الذين كانت لهم وقفات مشهودة من موضوع الدراسة : الدكتور تمام حسان ، ومن الغربيين ثلة من العلماء ، أولهم (فردنان دي سوسور) رائد البحث اللغوي الحديث ، وآخرهم (نعوم جومسكي) أشهر أعلام اللغة المعاصرين . وقد تتبعت الدراسة جهود هؤلاء العلماء باستقرائها في مصادرها الأصيلة ، وعالجت عرضها وتحليلها بمنهج وصفي لم يخل من ترجيح وتقويم واستدراك في مواضع الضرورة .

الكلمات الافتتاحية : الموازنة ، الصوت ، الإشارة .

المقدمة

شغلت وسائل اتصال الإنسان بمحيطه حيزا واسعا من تفكيره منذ المراحل الأولى لانبثاق وعيه بقيمة تلك الوسائل وأثرها في حياته حتى الآن. وإذا كانت اللغة الصوتية المنطوقة مركز الاهتمام المنهجي المنتظم والبؤرة الناصعة التي دارت حولها معظم الجهود اللغوية في العصور كلها فإن غيرها من أدوات التواصل بين البشر لم تعدم حظا من العناية والاهتمام، ومن بينها، وربما في المقدمة منها، الوسائل الإشارية غير الصوتية سواء أكانت طبيعية أم مصطنعة. والتعريف

بالجهود المعنية بالبحث في لغة الإشارات في حال اقترانه بالبحث في اللغة الصوتية المنطوقة فقط ، هو موضوع دراستنا، أي إن الوجهة الخاصة لهذه الدراسة هي رصد المنجز العلمي القديم والحديث المقتصر على الموازنة بين الطرفين وما تمخض عنها من نتائج لا مجمل الجهود المعنية بكل واحد منهما ؛ ذلك أن المباحث المفصلة والتنبيهات الموجزة التي ضمَّتها حدود المقابلة بين الصوت المسموع والإشارة المرئية تُمثل زبدة ما يمكن استخلاصه من الدراسات المستقلة بكل واحد منهما. وبسبب ما قدَّرناه من قيمة هذا الموضوع الذي تفرَّقت أسسه ومقوماته في مصادر شتى دون اجتماعها في جهد سابق ، بحسب استقرائنا المحدود، أقدمنا على محاولة بحثه في هذه الدراسة التي تألفت من هذه المقدمة وخاتمة بأهم النتائج، وما بين المقدمة والخاتمة تمهيد وثلاثة محاور. تضمَّن التمهيد استذكارا لمفهوم اللغة الصوتية المنطوقة ومفهوم لغة الإشارات، ومحاولة استخلاص مسوغات إطلاق مصطلح (لغة) على منظومة الدوال الإشارية المعبرة عن شتى المعاني والأغراض. وتناولت في المحور الأول الجهود القديمة التي انعقدت فيها الموازنة بين اللغة الصوتية المنطوقة واللغة الإشارية المرئية ، فصنفتها بحسب مستويات البحث فيها، وعرضت في كل مستوى منها الرأي الأصيل الذي يمثله. ومضمون المحور الثاني هو مضمون المحور الأول نفسه ولكن في جهود المحدثين من العرب وغيرهم ، أي اقتران بحث اللغة المنطوقة ببحث الدوال الإشارية غير الصوتية في الدرس الحديث ، وبسبب سبق جهود الغربيين بحسب مقتضى حداثة المنهج قدمت آراءهم على آراء العرب في هذا المجال . واستخلصت في المحور الأخير من الدراسة وجوه الاتفاق والافتراق بين اللغتين الصوتية والإشارية على وفق ما تقرر منها في جهود القدماء والمحدثين ، وحاولت استدراك بعض ما بدا لي انتماؤه إلى تلك الوجوه مما أخلت به جهود الفريقين . وقد اتبعت في مجمل محاور الدراسة منهجا وصفيا يقوم على أساس استقراء الآراء والمواقف في مصادرها الأصيلة ، ثم استعرض أقربها إلى جوهر موضوع الدراسة ، وما كان منها مكملا له اكتفيت بالإشارة إليه وتخريجه في مصادره ، لذلك تنوعت مصادر الدراسة واتسعت بسعة موضوعها الذي لم تقف حدود الاهتمام به على اللغويين ، بل شارك فيه مشاركة فاعلة الفلاسفة والحكماء والمتكلمون والفقهاء والنقاد وإن كان بعضهم معدودا في علماء اللغة أيضا . وغاية ما أرجوه لدراستي التوفيق لبعض ما قصدت له فيها من التعريف بجانب من جوانب البحث اللغوي اتصلت فيه جهود

أفذاذ من العلماء والمفكرين قديما وحديثا ، وأعتذر عما طرأ فيها من خطأ أو نقص أو خلل غير مقصود ، والحمد لله أولا وآخرا .

تمهيد

مسوغات اشتراك الإشارات بمصطلح (اللغة) مع اللغة الصوتية المنطوقة

محاولة تلمُّس بعض مسوغات إطلاق مصطلح (لغة) على منظومة الإشارات المعبرة عن المعاني والأغراض المختلفة تستدعي الإلمام بالدلالة الأصيلة لهذا المصطلح ، أي بمفهوم اللغة الصوتية المنطوقة، لكي يتضح سبيل انتقال دلالته إلى حيز الاصطلاح على الإشارات أو الدوال غير الصوتية.

اللغة الصوتية المنطوقة

عرض القدماء، من غير علماء اللغة، لمفهوم الكلام أو اللغة، من دون التعريف بلفظ صريح، وذلك في ضمن الحديث عن الأصوات والحروف، وأكثر ما يُستشف ذلك المفهوم ويُستخلص من بعض المباحث المتصلة بالفقه والفلسفة وعلم الكلام، لما بين اللغة وهذه العلوم من صلات وثيقة ، من ذلك قول الشيخ المفيد (ت ٤١٣هـ): «إن الكلام هو تقطيع الأصوات ونظامها على وجه يفيد المعاني المعقولات ، والأصوات عندي : ضرب من الأعراض . وليس يصح على الكلام البقاء ، من حيث يستحيل ذلك على الأعراض كلها ، ولأنه لو بقي الكلام لم يكن ما تقدم من حروف الكلمة أولى بالتأخر ، ولا المتأخر بالتقدم ، وكان ذلك يؤدي إلى فساد الكلام ، وارتفاع التفاهم به على كل حال» [الشيخ المفيد ١٤١٣هـ: ١٢٦. وينظر: ابن سينا ٢٠٠٧: ١٢٥ ، والحلي ١٤٢٦هـ: ٥٤ ، والحلي ١٤٣٠هـ : ٢٦٤]

(SHEIKHALMUFID, 1413:P126 & IBN SINA,2007:P125 & ALHILI,1426:P54 & ALHILI,1430:P264) .

وأما اللغويون ، ومن قاربت وجهته وجهتهم من نقاد الكلام ، فقلما يقف المتتبع لآثارهم على تعريف للغة ، ومن ذلك القليل تعريفان ، المتأخر منهما قول ابن سنان الخفاجي (ت ٤٦٦ هـ) : «اللغة : عبارة عما يتواضع القوم عليه من الكلام ، أو يكون توقيفا ؛ يقال في لغة العرب : إن السيف القاطع حسام ، أي تواضعوا على أن سموه بهذا الاسم» [الخفاجي ١٩٨٢ : ٤٨] (ALKHFAJY ,1982: p 48) .

والتعريف الآخر للغة هو تعريف ابن جني (ت ٣٩٢ هـ) لها بأنها «أصوات يُعَبِّرُ بها كلُّ قوم عن أغراضهم» [ابن جني ١٩٩٠ : ٣٣/١] ، (OSMAN, 1990 ; p 1:33) وهو من أمتن تعريفاتها وأوفاها ، ولم يأت بعده تعريف يضاهيه من حيث

الاختصار والشمول ، لأنه أحاط بإبعاد الحقيقة اللغوية كلها بأوجز عبارة ، فاللغة في جوهرها أصوات ، والصوت اللغوي في أيسر تعريفاته عند القدماء: «عرض مسموع يحدث من التموج الحاصل في الهواء الذي سببه القرع أو القلع ، والقرع هو: إمساس عنيف، والقلع تفريق عنيف . وبيانه أنه إذا حصل بين الجسمين المتقاربين مقارعة انقلب من بينهما هواء، فيصدم ذلك الهواء هواء آخر ، وهكذا حتى يصل ذلك التموج إلى سطح الصماخ ، ويدركه الحس السامع» [السيوري ١٤٠٥ هـ : ٨٥ – ٨٦] (ALSAYURI, 1405 : 85-86) . وعند المحدثين : «أثر سمعي يصدر طواعية واختيارا عن تلك الأعضاء المُسماة تجاوزا أعضاء النطق» [بشر ٢٠٠٠ : ١١٩] (BESHR, 2000:p119) . ثم تنتظم الأصوات في تراكيب وصياغات معينة في أي لغة ، لكي يؤدي كل منها وظيفة خاصة في التعبير لا تلتبس بغيرها ، فالنظام الصوتي في أية لغة هو نظام خاص لا يختلط بغيره ، والدليل على ذلك ما قيل في وجود أكثر من (٤٠٠٠) لغة منطوقة في العالم ، لكل منها نظام صوتي خاص لا يتداخل مع غيره من أنظمة اللغات الأخرى [بشري ١٩٨٨ : ٣] (BESHRI, 1988:p3). ويقف الباحث المتتبع على تعريفات عدة للغة عند المحدثين ، قد تختلف صياغتها ، ولكنها تكاد تتفق على إبراز الجانب الصوتي فيها، فهي مجموعة أصوات منطوقة تُتَداول بالمشافهة، وفي مرحلة لاحقة اخترع الإنسان رموزا لهذه الأصوات، ومعنى ذلك أن الصوت المنطوق يسبق الرمز المكتوب في الوجود [حجازي ١٩٩٢ : ١٠ ، وجبر ٢٠٠٦ : ٧] . (MUHAMMAD 2006:p7 &HIJAZI 1992:p10) .

لغة الإشارات

أشرنا في مقدمة الدراسة إلى أن الإنسان عرف منذ القدم وسائل أخرى في التواصل مع محيطه غير اللغة الصوتية المنطوقة ، منها الإشارات المرئية بشتى أشكالها ومصادرها. ولسنا الآن بصدد متابعة هذه المسألة من الوجهة التاريخية، ولكن نشير إلى ما استقر عليه الإرث المعرفي والوعي الثقافي ، فضلا عن البحث العلمي المنهجي في العصر الحديث ، من وصف تلك الوسائل الإشارية بمصطلح (لغة) أيضا من قبيل المجاز تشبيها لها باللغة الصوتية ، قال زين الدين العاملي (ت ٩٦٥ هـ): «إطلاق الكلام على الكتابة والإشارة وما يُفهم من حال الشيء: إطلاق مجازي ، على الصحيح، لا من باب الاشتراك» [الشهيد الثاني ١٤٢٩ هـ: ٣٣٢] (ALI, 1429:p332)، أي إن وصف (اللغة) لحق الإشارة بسبب ما تؤديه من وظائف حقيقية في التعبير عن المعاني أو إيصالها من مصدرها إلى متلقيها،

فالإنسان هو موجدها، وهو متلقيها، شأنها في ذلك شأن الصوت اللغوي، ولعل هذا التناسب بينها وبين الصوت هو الذي مهد السبيل لاستحقاقها الوصف بمصلح (لغة).

المحور الأول

مستويات البحث الجامع بين التعبير بالصوت وبالإشارة في التراث

لم يقتصر إدراك السمة الرئيسة لوجود الإنسان، من أنه كائن اجتماعي بطبعه لا تكتمل مقومات حياته ولا تستقر مشاربها من دون التواصل مع بني جنسه ، على العصر الحديث فقط ، بل أدرك القدماء ذلك «لأنه لا سبيل إلى بقاء أحد من الناس ووجوده دون كلام» [الأندلسي ١٩٨٣ : ٣٠/١] (ALANDALUSI, 1983:p1:30) لذلك نالت وسائل الاتصال ، ولاسيما اللغة المنطوقة والإشارات المرئية ، ما تستحقه من عنايتهم واهتمامهم ، وكانت لهم في المقارنة بين اللغتين نظرات مختصرة ، ومباحث مفصلة يمكن تصنيفها في أربعة مستويات متقاربة ، الأول : التحديد الاصطلاحي ، والثاني : الوصف المتناظر ، والثالث : بيان القيمة في التعبير والأداء ، والأخير : المنظور الشامل .

المستوى الأول : التحديد الاصطلاحي

رسمُ حدود دلالة المصطلحات ، لكي لا يلتبس بعضها ببعض ، من الأسس المتينة التي قامت عليها مختلف صنوف العلم والمعرفة في الحضارة العربية الإسلامية التي شهدت مصنفات مستقلة في (الحدود) بما دلت عليه الكلمة من معنى الاختصاص بتعريف مصطلحات شتى العلوم والفنون والمعارف [تنظر أمثلة من عنواناتها في : ابن النديم ٢٠٠٩ : ٥٦٧/٤ ، وحاجي خليفة ٢٠١٠ : ٥٥٠/٦، والجلالي ١٤٢٢ هـ : ٨٠٧/٢] .

ISHAQ,2009:P4:567&ALKHALIFA,2010:P6:550&ALJALALI,1 (422:P2:807)

إن دلالة الرمز على المعنى هو الجامع بين الصوت والإشارة ، فكلاهما رمز له دلالة معينة ، ولعل هذا من البديهيات أو المبادئ العامة التي أدركها القدماء وهم بصدد تحديد مفاهيم مصطلحات المعرفة وتقعيدها ، ولذلك قرنوا بينهما تصريحا أو تلميحا حين عرفوا الدلالة بأنها «كون الشيء بحالة يلزم من العلم به العلم بشيء آخر ، والشيء الأول هو الدال ، والثاني هو المدلول» [الجرجاني ٢٠٠٣ : ٨٦].(ALJARJANI, 2003:p86) والتعريف المتقدم عام يشمل كل ما يحصل به العلم سواء أكان صوتا أم إشارة ، وقد تكرر هذا المفهوم عند تعريف الدليل في

اللغة والاصطلاح : «الدليل في اللغة هو المرشد ، وما به الإرشاد . وفي الاصطلاح : هو الذي يلزم العلم به العلم بشيء آخر» [الجرجاني ٢٠٠٣ : ٨٦] (ALJARJANI, 2003:p86) . ومما عزز الاعتقاد بإرادة المفهوم المتقدم في التعريفين ورود التصريح بطرفيه : الصوت والإشارة ، بنحو واضح لا لبس فيه عند الحديث عن ضوابطه المنهجية «ووجه ضبطه : أن الحكم المستفاد من النظم : إما أن يكون ثابتا بنفس النظم ، أو لا . الأول : إذا كان النظم مسوقا له فهو العبارة ، وإلا : فالإشارة فَالإشارة» [الجرجاني ٢٠٠٣ : ٨٦] (ALJARJANI, 2003:p86) . ولا يخفى أن المقصود بـ (العبارة) الأصوات المنتظمة بعلاقات خاصة تعبر عن دلالات معينة ، وإن غابت العبارة لسبب ما حلت الإشارة محلها . ومن مجالات التحديد الاصطلاحي التي ظهرت فيها المقابلة بين الصوت والإشارة ما تعلق بتعيين حدود الحواس في الإدراك ، وقد شاع في البحث الفلسفي القديم تعيين (أنواع الإدراك) أو (أنواع الإحساس) لدى الإنسان بالحواس الخمسة ، وما اتصل منها بثنائية الصوت والإشارة هو كل من : حاسة السمع للصوت ، وحاسة البصر للإشارة ، ومن شواهد الأقوال الموجزة التي قد تفي بحاجة التمثيل لاقترانهما قول الشيخ المفيد : «إن الحس كله بمماسة ما يُحَسُّ به المحسوس واتصاله به أو بما يتصل به ... وذلك كالبصر فإن شعاعه لا بد أن يتصل بالمبصر ... ولو كان يحس به من غير اتصال لما ضَرَّ الساتر والحاجز ولا ضَرَّت الظلمة ولكان وجود ذلك وعدمه في وقوع العلم سواء ... أما الصوت فإنه إذا حدث في أول الهواء الذي يلي الأجسام المصطكَّة ، وكذا فيما يليه من الهواء مثله ، ثم كذلك إلى أن يتولد في الهواء الذي يلي الصماخ فيدركه السامع» [الشيخ المفيد ١٤١٣ هـ : ١٣٧ – ١٣٨ . وينظر : المصدر نفسه ٩٠ ، والطوسي ١٣٧٢ هـ : ٢٠٤ ، والسيوري ١٤٢٤ هـ : ١١٢] .

SHEKHALMUFID,1413:P137&ALTUWSII,1372:P204&ALSAY (URI,1424P112)

المستوى الثاني : الوصف المتناظر

المقصود بالوصف المتناظر وصف القدماء لوظيفة الكلام أو الصوت المنطوق بجانب وصف وظيفة الإشارة في أداء المعاني أو الدلالات ، وما يتبع الوصف من بيان وجوه العلائق الجامعة بين الطرفين . وأكثر ما ورد البحث القديم في المسألة المقصودة بالدراسة عند هذا المستوى من مستوياته في المواقف والآراء الخاصة بالنزاع بين مذهبين رئيسين في تعيين أولية نشأة اللغة ، هما : التوقيف أو الإلهام ،

والتواضع أو الاصطلاح . وقد أظهر هذا النزاع ملامح مهمة من حقيقة الفكر اللغوي القديم كاد يهملها الدرس الحديث في العربية بسبب التأثر بمقولة أجنبية مفادها احتراق البحث في هذه المسألة لتعذر الوصول إلى نتيجة محكمة فيها ، والحال أن نارها في العربية لم تكد تتقد حتى تحرق البحث فيها ، ولو احترق بحدود النتائج في تبني نظرية بعينها من نظريات نشأة اللغة فإن شيئا ليس بالقليل من مقدماتها ومقوماتها الموضوعية المتصلة بجوهر الحقيقة اللغوية عند الإنسان ما زال غضا طريا ، والاسترسال بذكر شواهد لما يتفرع عن هذه المسألة الرئيسة من مسائل فرعية مما لا يعسر على المهتم بها الوقوف عليها في مصادرها كالمصادر المشار إليها في الحواشي قريبا ، وبعض تلك المسائل مما تنبه عليه الدرس اللغوي الحديث بأخرة ، أقول : الاسترسال بذكر الشواهد يخرج بدراستنا عن وجهتها الخاصة ، وقصدنا من التنويه بقيمتها العلمية التمهيد لما يأتي إيجازه من آراء وثيقة الصلة بها . ومما يحسن التمهيد به هنا أيضا التنبيه على وجه مهم من وجوه العلاقة بين الصوت والإشارة كاد يطرد حضوره في معظم مواقف الجدل التي طبعت بميسمها النصوص القديمة المعنية بالدراسة ، غير الوجه الرئيس بينهما الذي هو اشتراكهما في التعبير عن أغراض الإنسان وأفكاره ، والوجه المراد : ثبات الحاجة إلى الإشارة في تعيين مقاصد الدوال الصوتية بصرف النظر عن اعتماد أي مذهب أو رأي في حقيقة النشأة الأولى للغة، أي إن جنس الإشارة هنا محدد بما يصطنعه المتكلم في أثناء كلامه من حركات تفسر للمتلقي مغازي الصوت ودلالاته لا أي جنس آخر من أجناس الإشارة . ومن النظرات القديمة التي جمعت بين الطرفين : الصوت والإشارة ، بوصفهما وسيلتي التعبير الرئيستين عند الإنسان ، فضلا عن الإشعار بوجود الوجه الآخر للعلاقة بينهما ، ما ورد عند ابن حزم الأندلسي (ت ٤٥٦ هـ) من بعض كلامه في رد مذهب من قال بالتواضع والاصطلاح في تفسير نشأة اللغة : «وأيضا فإن الاصطلاح على وضع لغة لا يكون، ضرورة، إلا بكلام متقدم بين المصطلِحين على وضعها ، أو بإشارات قد اتفقوا على فهمها، وذلك الاتفاق على فهم تلك الإشارات لا يكون إلا بكلام ، ضرورة، ومعرفة حدود الأشياء وطبائعها التي عُبِّرَ عنها بألفاظ اللغات لا يكون إلا بكلام وتفهيم، لا بد من ذلك. فقد بطل الاصطلاح على ابتداء الكلام ، ولم يبق إلا أن يقول قائل : إن الكلام فعل الطبيعة» [الأندلسي ١٩٨٣ : ١/٣٠] (ALANDALUSI, 1983:p1:30) . ومن تلك الوقفات المتميزة في فحواها ما ورد عند علي بن محمد الآمدي (ت ٦٣١ هـ) في كلام على الموضوع المتقدم نفسه

ولكن في سياق العرض الموضوعي ، لا الرفض أو الرد ، حين ذكر رأي (البهشمية) ، وهم أصحاب أبي هاشم الجبائي (ت ٣٢١ هـ) ، الذاهب إلى القول بالوضع والاصطلاح ، وموطن التميز الإقرار بحاجة المتكلم إلى الإشارة لإيضاح دلالات الكلام ومعاني الألفاظ في مرحلة النشأة أيضا؛ قال الآمدي: «وذهب البهشمية وجماعة من المتكلمين إلى أن ذلك من وضع أرباب اللغات واصطلاحهم، وإن واحدا، أو جماعة انبعثت داعيته ، أو دواعيهم إلى وضع هذه الألفاظ بإزاء معانيها، ثم حصل تعريف الباقين بالإشارة والتكرار ، كما يفعل الوالدان بالولد الرضيع، وكما يُعَرِّفُ الأخرس ما في ضميره بالإشارة والتكرار مرة بعد أخرى» [الآمدي ٢٠٠٣ : ١/١٠٢ – ١٠٣] (ALAMIDI, 2003:p1:102-103).

وكان أبو رشيد المعتزلي (ت بعد ٤١٥ هـ) تلميذ القاضي عبد الجبار (ت ٤١٥ هـ) وخليفته قد سبق في كتابه الخاص بمسائل الخلاف بين أعلام المعتزلة إلى التصريح بمذهب أبي هاشم الجبائي ، ومذهب شيخين آخرين من شيوخ المعتزلة ، هما : أبو علي الجبائي والد أبي هاشم (ت ٣٠٣ هـ) ، وأبو القاسم عبد الله بن أحمد بن محمود الكعبي البلخي(ت٣١٩هـ) ؛ قال أبو رشيد : «اعلم أن أبا هاشم قال : إن ابتداء اللغات لا يكون إلا بالمواضعة . وقال أبو القاسم : إن ابتداءها لا يكون إلا بالتوقيف . وقال أبو علي : يجوز أن يكون بالتوقيف ، ويجوز أن يكون بالمواضعة» [النيسابوري ١٩٧٩ : ١٥٨] (ALNISABURI , 1979:p158) .

وكان أبو رشيد متابعا لأبي هاشم في رأيه من هذه المسألة الذي تقدم إيضاح مضمونه بإيجاز عند الآمدي، وقد عرضه أبو رشيد بنحو مفصل في أثناء رد متميز على ما نقله من كلام لأبي القاسم البلخي ورد في كتابه (عيون المسائل) وذهب فيه إلى تعذر الميل إلى الاصطلاح ، لأنه يحوج القائل به إلى لغة أخرى تُيَسِّر التفاهم بين المصطلِحين ، وهي عين الحجة التي مرَّ بنا تذرع ابن حزم بها، وقام رد أبي رشيد على أساس من وجود وسيلة أخرى لإشاعة اللغة المصطلح عليها هي الإشارة ، قال : «سؤال : قيل في (عيون المسائل): لا يمكن أحد الاصطلاح على لغة ، إلا إذا تقدمتها لغة ، فشافه بعضهم بعضا، أو كتابة، حتى يصح أن تصطلحوا على غيرها . فإن قال قائل: هذا ممكن، فليختبر نفسه، فإن ذلك يجده متعذرا. الجواب: إن هذا ممكن، لأن أحدنا إذا عرف صفة الحروف التي يتكلم بها ضرورة، وعَلِمَ ضرورةً أنه يمكنه أن يفعلها بلسانه ولهواته، صح أن يفعلها ويضم إليها من الإشارة ما يقع عندها الاضطرار إلى قصده، نحو صنيعنا مع التركي إذا أردنا أن نكلمه بالفارسية بما نضيف إليها من الإشارة المقتضية

للاضطرار ممكن، فكذلك حال اللغة التي نبتديها ...» [النيسابوري ١٩٧٩ : ١٦٠] (ALNISABURI , 1979:p160) . والقول بجواز وقوع الاصطلاح في حيز محدود وتعذر حصوله بنحو شامل، ومن ثم قيام الإشارة بإيصال دلالات اللغة الصوتية إلى من لم يحضر الاصطلاح عليها ليس موطن التميز الوحيد في رد أبي رشيد على أبي القاسم البلخي، بل فيه موطن آخر لا يقل عنه قيمة هو الإيحاء بالصفة الرمزية الإشارية للغة المفاد من قوله: «إن هذا ممكن ، لأن أحدنا إذا عرف صفة الحروف التي يتكلم بها ضرورة، وعلم ضرورة أنه يمكنه أن يفعلها بلسانه ولهواته، صح أن يفعلها ويضم إليها من الإشارة ما يقع عندها الاضطرار إلى قصده»، ومما ينفي عن استيحائنا هذا المعنى من كلام أبي رشيد وصمة المجازفة في التقدير وجوده صراحة في تراث المعتزلة القريب من أبي رشيد ، أعني تصريح الجاحظ ، وهو رأس في المعتزلة ، به بحسب ما يأتي بيانه في شرح المستوى الرابع ، وقد ظل هذا المعنى منطويا حتى بعثه (سوسور) في العصر الحديث حين دعا إلى دراسة اللغة في إطار علم سماه (علم الإشارات semiology) بوصفها نظام من الرموز تجتمع مع غيرها من الأنظمة الإشارية في غرض التعبير عن المعاني أو إظهار الدلالات المختلفة بحسب ما يأتي تفصيله في المحور الثاني من الدراسة . ومن المسائل الفرعية ذات الصلة بموضوع المقابلة بين الصوت والإشارة التي ألم بها أبو رشيد النيسابوري المعتزلي في سياق الردود على القائلين بالتوقيف التنبيه على أن ما يشمل اللغة الصوتية يشمل الإشارة من جهة المواضعة والاصطلاح ، وذلك في معرض الرد على من ألجأته قوة رأي أبي هاشم من القائلين بالتوقيف إلى الإقرار بعدم امتناع وجود الإشارة والإفادة منها في هذا المورد ولكن على سبيل التوقيف أيضا لا المواضعة أو الاصطلاح ؛ قال أبو رشيد : «فإن قيل : جوَّزوا أن يُخْلَقَ مع الكلام ما يجري مجرى الإشارة في بعض الأجسام حتى يقع في الأفهام ، كالذي نفعله مع الصبيان . قيل له : تلك الإشارة لا يكون لها من التعلق بما يحل الجسم دون نفس الجسم ، ولا ببعض ما يحل ذلك الجسم دون بعض . وكيف تدل تلك الإشارة على ما أريد بالكلام دون تعلق ، ولا بد من تعلق بين الدليل وبين ما يدل عليه ، ويفارق ذلك ما يفعله من الإشارة ، لأن عندها يقع الاضطرار إلى قصدنا ، وهؤلاء لا يقولون بأن عند تلك الحركات يقع الاضطرار إلى مراد القديم ...» [النيسابوري ١٩٧٩ : ١٥٨] (ALNISABURI , 1979:p158) . ولا يخفى بأن المراد من (الحركات) في سياق كلام أبي رشيد ما يقابل معنى الإشارات ، وإنما وقفنا عند دلالة هذا المصطلح لأنه سيرد في

ضمن نص قديم من النصوص المعروضة في شرح المستوى الثالث بالدلالة نفسها، ولكن بعض الدراسات الحديثة التي أفادت من النص فسرته بغير هذه الدلالة .

المستوى الثالث: بيان القيمة في التعبير والأداء

ربما صاحب الموازنة بين اللغة المنطوقة والإشارة عند القدماء تحديد قيمة كل منهما، فتكون النتيجة متساوية في الطرفين، أو تميل الكفة إلى أحدهما . ومن شواهد الحالة الأولى في الموازنة ما وجدناه عند أبي علي أحمد بن محمد مسكويه (ت ٤٢١ هـ) حين قرن الإشارة بالصوت في التعبير عن المعاني، فقال في الجواب على بعض سؤلات أبي حيان التوحيدي (ت ٤١٤ هـ) عن سبل تمييز الفروق المعنوية الدقيقة بين ألفاظ مترادفة تكاد تتفق معانيها في الظاهر : «وهذه المعاونات والضرورات المقتسمة بين الناس، التي بها يصح بقاؤهم وتتم حياتهم ، وتحسن معايشهم هي أشخاص وأعيان من أمور مختلفة وأحوال غير متفقة ، وهي كثير غير متناهية، وربما كانت حاضرة فصحّت الإشارة إليها ، وربما كانت غائبة فلم تكف الإشارة فيها، فلم يكن من بد من أن يُفزع إلى حركات وأصوات دالة على هذه المعاني في الاصطلاح، يستدعيها بعض الناس من بعض ، وليعاون بعضهم بعضا ، فيتم لهم البقاء الإنساني، وتكمل فيهم الحياة البشرية» [التوحيدي ومسكويه ٢٠٠١ : ٦ – ٧] . (ALTAWEEDY.&MUSEQUIAH 2001:p6–7) .

ومن الواضح أن مسكويه قصد في كلامه لإحدى نظريات نشأة اللغة المسماة نظرية التواضع والاصطلاح التي شاع ذكرها في عصره بحسب ما تقدم بيانه في الكلام على المستوى السابق ، لذا استحق الالتحاق بأوائل القائلين بها في تراث العربية [آل ياسين ١٩٧٨ : ١٣ – ١٦] (ALYASEEN,1978:p13–16) .

ومفاد كلام مسكويه أن الإنسان ، قبل استعماله اللغة ، كان يشير إلى الأشياء الحاضرة أمامه فقط، بصرف النظر عن صفتها أو جنسها ، إشارة بسيطة مباشرة، كأن يكون ذلك بأحد أعضاء جسده كاليد أو الرجل أو الرأس ، أو بأداة تحملها يده، فإذا غابت عن نظره انتفى فعل الإشارة البسيطة المباشرة ، وكذلك ينتهي مفعولها مع تطور الحياة وظهور المعاني التجريدية التي لا تكفي الإشارة في التعبير عنها، ومن هنا ظهرت الحاجة إلى وسائل أخرى في التعبير عن المعاني والإغراض، وقد ذكر مسكويه منها (الحركات) و (الأصوات)، ولا بد من أن يكون قصده من (الحركات) الإشارات غير المباشرة، أو الصادرة بإعمال الفكر وتدبير العقل لكي تصلح في التعبير عن المعاني غير الحسية أو الأشياء المادية في حال غيابها، وقد قدمها على (الأصوات) مراعاة للتتابع المنطقي، فالحركة أو الإشارة تسبق

الصوت في الوجود الخارجي. وإذا صح هذا الفهم لمغزى كلام مسكويه فقد كاد يبتعد عنه من نقله منسوبا إلى أبي حيان وقال في توجيهه : «وفي نص أبي حيان السابق تلخيص رائع لطبيعة اللغة ، فقد أجمل هذه الطبيعة بقوله : (إنها حركات وأصوات دالة على هذه المعاني بالاصطلاح)، ومعنى ذلك أن الأصوات التي هي جوهر اللغة ومادتها الخام تنجم عن حركات إرادية تؤديها أعضاء النطق المبثوثة بين الحنجرة والشفتين ، وتعترض بها الهواء المندفع بين الرئتين في عملية الزفير» [العزاوي ٢٠٠٤ : ٢٧ – ٣٨] . (AL AZZAWI,2004 2004:p27 – 38) .

ولا تعليق على هذا التوجيه بأكثر من القول إن مسكويه ، لا أبا حيان ، لم يقصد بـ (الحركات) حركات أعضاء النطق كما يبدو من ظاهر كلامه ، وإنه لو أراد هذا المعنى لصرح به ولم يعطف (الحركات) على (الأصوات) عطفا يفيد المغايرة ، ولما كان الحال كذلك فلا بد من أنه أراد بالحركات معنى الإشارات غير الصوتية .

وإذا كان مسكويه ، ومن ثم أبو حيان التوحيدي لو قدَّرنا اقتناعه بجواب مسكويه ، قد تساوت عندهما قيمة الوسيلتين ولم يقطعا بتفضيل إحداهما على الأخرى ، ووجدا فيهما ما يفي بوظيفة التعبير والتواصل بمقدار واحد ، فقد مثَّل القاضي عبد الجبار ، وهو من أعلام المعتزلة الذين ترعرعت في مهادهم بوادر البحث في الصلة بين الصوت والإشارة ، حالة الميل إلى تفضيل الأصوات المجتمعة في الكلام على الإشارة المجردة ، لأنه رأى الكلام باللغة المنطوقة أقدر منها على الإحاطة بالمعاني المختلفة والتعبير عنها .وذكرت بعض الدراسات الحديثة التي تناولت موضوع الموازنة بين الإشارة والكلام المنطوق عند المعتزلة أن «علاقة الكلام بالإشارة ، وعلاقة الكلام بالكتابة ، كانت من المحاور الأساسية في التفكير الاعتزالي ، إذ أشار (القاضي عبد الجبار) إلى أن الإشارة غير قادرة على استيعاب الفهم العام أو حاجات الإنسان بهيأتها الواسعة ، وعلى النقيض منها الكلام الذي استوعب التفكير الإنساني بوصفة المعبر الأساسي عنه ، كما أن الكتابة تعد في درجة أدنى من الكلام ، إذ أن الإفادة من الكتابة لن تتحقق ما لم يكن الكلام»[الحسن ٢٠٠٢ : ٨٥] . (ALHASAN. 2002:p85) . ويفيد رأي القاضي عبد الجبار متوالية منطقية يتقدم فيها الكلام على الرمز اللغوي المُعَبَّر عنه بالكتابة ، يلي ذلك أشكال الاتصال الأخرى ، ولاسيما الإشارات بمختلف أنواعها ، وسنقف على هذا فحوى هذا الرأي عند بعض العلماء الغربيين المعاصرين في ما يأتي من الدراسة .وربما صلح لتمثيل الحالة الأخيرة للنتيجة المستخلصة من الموازنة بين اللغة المنطوقة والإشارة عند القدماء ، أي الحالة التي تكون النتيجة

فيها الميل نحو الإشارة في التعبير والأداء ، ما يُستشعَر من كلام بعض النقاد والبلاغيين على تشبيه الدلالة المفادة من بعض التراكيب بدلالة الإشارة من جهة السعة والضيق ، كقول ابن أبي الأصبع في (باب الإشارة) : «وهو مما فَرَّعَهُ قدامة من ائتلاف اللفظ مع المعنى ، وشرحه فقال : هو أن يكون اللفظ القليل دالا على المعنى الكثير ، حتى تكون دلالة اللفظ كالإشارة باليد ، فإنها تشير بحركة واحدة إلى أشياء كثيرة لو عُبِّرَ عنها بأسمائها احتاجت إلى عبارة طويلة وألفاظ كثيرة» [ابن أبي الإصبع المصري ١٩٥٧ : ٨٢/٢ . وينظر : ابن جعفر د . ت : ١٥٤ – ١٥٥ ، والحموي ١٢٧٣ هـ : ٤٣٧ ، والكرمي الحنبلي ٢٠٠٤ : ١٤٨] ، ALMASRY,1957:P2:82&JAAFER,P154&ALHANBALI,2004:P1 (48)

ولا شك في أن مجرد تشبيه نصوص راقية من اللغة المنطوقة بالإشارة في الصفة المقصودة في النص المتقدم ، وفي غيره ، يشعر بالميل إلى الإشارة ويرفع من قيمتها [ابن منقذ ١٩٦٠ : ٩٩] (MUNQID,1960:p99)

المستوى الرابع : المنظور الشامل

وجود الرؤية الشاملة في بحث العلاقة بين الصوت والإشارة من حيث التنظير العلمي، والاستشهاد المنهجي، والتقويم الموضوعي، في حدود ما وصل إلينا من موارد تراثنا، نادر، لأنه يتطلب نظرا ثاقبا يستند إلى سعة الثقافة والتبحر في علوم عدة والإحاطة بمعارف شتى، وقد اجتمعت هذه الصفات وغيرها من شمائل النبوغ في شخص أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت ٢٥٥ هـ)؛ فمن بين مجمل الجهود القديمة التي تناولت أنواع الوسائل المعبرة عن المعاني يكاد ينفرد الجاحظ ببحثها بنحو مفصل وبمنظور شامل جمع إلى الروح العملية ، التي امتازت بها عبقريته، البراعة في انتخاب الشواهد المؤيدة لرأيه ، ولاسيما ما تعلق منها بالإشارة بوجه عام، وإشارة بعض جوارح الإنسان على نحو خاص ؛ إذ أولى الجاحظ هذه المفردة عناية ظاهرة ، وختم بحثه فيها بتصريح جلي وحكم قاطع بأفضليتها أو تفوقها على الكلام المنطوق في مواضع معينة، وتبقى الميزة الرئيسة الظاهرة على مجمل بحث الجاحظ أنه تناول الموضوع بأسلوب علمي أدبي رصين كاد يحيط بأبعاده كلها ، ولأننا لم نقف على نظير له عند المتقدمين عليه ولا عند من عاصره أو تلاه من القدماء آثرنا استعراض أهم تفاصيله في هذا الموضع من الدراسة. ابتدأ بحث الجاحظ بتعداد أنواع الدلالات على المعاني وبيان قيمتها بنحو عام، ممهداً لذلك بذكر الغاية التي تجمعها بوصفها وسائل التعبير أو الاتصال الرئيسة عند

الإنسان، سواء أكانت لغة منطوقة أم لم تكن كذلك، وهذه حقيقة جوهرية أشرنا من قبل إلى ظهور شيء من ملامحها عند بعض المعتزلة، ثم ظلت مطوية حتى بعثها من جديد رائد البحث اللغوي الحديث (فردنان دي سوسور) الذي سنقف عند رأيه في موضع قريب من الدراسة .وقد عبر الجاحظ عن تلك الغاية بمصطلحات متقاربة في دلالاتها كـ (البيان) و (الفهم) و (الإفهام)، فقال في تعريف (البيان): «والبيان: اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى، وهَتَكَ الحجاب دون الضمير، حتى يُفضي السامع إلى حقيقته ، ويهجم على محصوله كائناً ما كان ذلك البيان، ومن أي جنس كان الدليل ، لأن مدار الأمر والغاية التي يجري إليها القائل والسامع، إنما هي الفهم والإفهام ، فبأي شيء بَلَغْتُ الإفهام وأوضحت عن المعنى، فذلك هو البيان في ذلك الموضع» [الجاحظ ١٩٨٥ : ٧٦/١] . (ALJAHIZ,1985:p1:76) والحقيقة العلمية الظاهرة في كلام الجاحظ أن التفاهم بين الناس لا يحصل عن طريق الكلام المنطوق فقط ، وإنما هناك وسائل أخرى لا تقل عنه شأنا إن لم نقل تفقه قيمة في بعض المواضع ، وقد ذكر منها خمساً في قوله : «وجميع أصناف الدلالات على المعاني من لفظ وغير لفظ، خمسة أشياء لا تنقص ولا تزيد: أولها اللفظ، ثم الإشارة، ثم العقد، ثم الخط، ثم الحال التي تسمى نصْبَة. ولكل واحد من هذه الخمسة صورة بائنة من صورة صاحبتها، وحلية مخالفة لحلية أختها، وهي التي تكشف لك عن أعيان المعاني في الجملة ، ثم عن حقائقها في التفسير، وعن أجناسها وأقدارها، وعن خاصها وعامها، وعن طبقاتها في السار والضار، وعما يكون منها لغواً بَهْرَجاً، وساقطاً مُطَّرَحاً» [الجاحظ ١٩٨٥ : ٧٦/١] (ALJAHIZ,1985:p1:76). ثم تحدث الجاحظ عن اللفظ بوصفه أول أصناف الدلالات الخمسة التي ذكرها بحديث موجز أغلبه أقوال مأثورة ونصوص أدبية تتعلق بقيمة البيان بوجه عام [الجاحظ ١٩٨٥ : ٧٧/١] (ALJAHIZ,1985:p1:77) . ثم ولج الجاحظ ميدان الحديث عن الإشارة، فأولاها ما تستحقه من بحث متميز ، وجعل كلامه في ثلاث مراحل، جمع في الأولى بين الإشارة واللفظ بمقدار واحد مع ميل خفي إلى الإشارة يحسه القارئ بين طيات كلامه حين قال: «قد قلنا في الدلالة باللفظ ، وأما الإشارة باليد، وبالرأس، وبالعين والحاجب والمنكب، إذا تباعد الشخصان، وبالثوب وبالسيف ... والإشارة واللفظ شريكان، ونِعْمَ العون هي له، ونِعْمَ الترجمان هي عنه، وما أكثر ما تنوب عن اللفظ، وما تغني عن الخط. وبعدُ: فهل تعدو الإشارة أن تكون ذات صورة معروفة، وحلية موصوفة ، على اختلاف في طبقاتها ودلالاتها» [الجاحظ ١٩٨٥ :

٧٧/١ – ٧٨] (ALJAHIZ,1985:p1:77). وفي المرحلة الثانية خصَّ الجاحظ بالكلام الإشارة المفادة من سائر جوارح الإنسان، وأبان عن مواطن الانتفاع منها، ولاسيما عندما تعبر عن (معنى خاص الخاص) بحسب قوله الذي جاء فيه : «وفي الإشارة بالطرف والحاجب وغير ذلك من الجوارح مرفق كبير ومعونة حاضرة في أمور يسترها بعض الناس من بعض، ويخفونها من الجليس وغير الجليس ، ولولا الإشارة لم يتفاهم الناس معنى خاص الخاص، ولجهلوا هذا الباب البتة» [الجاحظ ١٩٨٥ : ٧٨/١] (ALJAHIZ,1985:p1:78). واعتذر الجاحظ في المرحلة الأخيرة من كلامه الخاص بالإشارة عن الاسترسال في تفسير الفكرة المتقدمة، لأن تفسيرها يدخل في باب آخر غير الباب الذي هو بصدد إيضاحه، ولكنه استعاض عن التفسير بالتمثيل بشواهد تغني الفكرة المقصودة، إذ تعلق أغلب هذه الشواهد بالإشارات [الجاحظ ١٩٨٥ : ٧٨/١ – ٧٩] . (ALJAHIZ,1985:p1:79). وبعد إيراد جمهرة الشواهد الدالة على الغرض المقصود أعاد الجاحظ التأكيد على قيمة الإشارة بوجه عام وتفوقها على اللفظ في قوله:«هذا ، ومبلغ الإشارة أبعد من مبلغ الصوت، فهذا أيضاً باب تتقدم فيه الإشارة الصوتَ» [الجاحظ ١٩٨٥: ٧٩/١] (ALJAHIZ,1985:p1:79). وقد تناول الجاحظ وسائل البيان أو التعبير أيضاً في كتابه (الحيوان)، ولكنه عدّ منها في أول بحثه أربع وسائل حين قال: «وجُعل البيان على أربعة أقسام: لفظ، وخط ، وعقد، وإشارة» [الجاحظ ١٩٦٩: ٣٣/١] (ALJAHIZ,1969:p1:33) . ولكنه زاد (النصبة) في آخر كلامه عندما قال : «فموضوع الجسم ونصبته، دليل على ما فيه وداعية إليه، ومَنْبَهَة عليه. فالجماد الأبكم الأخرس من هذا الوجه، قد شارك في البيان الإنسان الحيَّ الناطقَ ، فمن جعل أقسام البيان خمسة، فقد ذهب أيضاً مذهباً له جواز في اللغة، وشاهد في العقل» [الجاحظ ١٩٦٩: ٣٥/١] (ALJAHIZ,1969:p1:35) . ولم نكد نقف في مصادرنا القديمة على جهد آخر يشبه جهد الجاحظ من حيث الرؤية العلمية الناضجة المستوعبة لأغلب مفردات الموضوع ، ولاسيما في الجانب المتعلق بمبحث الإشارة ، ولذلك اعتمده من تلاه من علماء الأدب والبيان بعد أن لم يروا مزيداً عليه، فاقتصر بعضهم على نقل فقرات منه منسوبة إليه ، كابن رشيق القيرواني (ت ٤٥٦ هـ) في قوله : «وقالوا : مبلغ الإشارة أبلغ من مبلغ الصوت، فهذا باب تتقدم الإشارة فيه الصوت ، وقيل : حسن الإشارة باليد والرأس من تمام حسن البيان باللسان ، جاء بذلك الرماني نصاً ، وقاله الجاحظ من قبل» [القيرواني ٢٠٠٣ : ٢٦٢/٢] . (KAIROUANI,2003:p2:262). ونقل علي بن خلف

الكاتب (ت بعد ٤٣٧ هـ) كلام الجاحظ بتمامه من دون أن ينسبه إليه وكأنه هو صاحبه [الكاتب ١٩٩٠ : ١٤٣/٣ – ١٤٥] (ALKATEB,1990:p3:143) ، بيد أنه زاد فيه زيادات يسيرة لا تخلو من فائدة ، منها التفريق بين البيان والدلالة في قوله : «البيان اختصار المعنى للنفس في صيغة توصله إليه من غير مهلة . وإنما قالوا من غير مهلة ، ليفرق بينه وبين الدلالة ، لأن الدلالة تحضر المعنى للنفس وإن أبطأت» [الكاتب ١٩٩٠ : ١٤٣/٣] (ALKATEB,1990:p3:143) . ومنها تفسيره تعبير (خاص الخاص) الذي ورد في كلام الجاحظ بقوله : «وخاص الخاص : الدلالة على الشيء بما لا يشركه فيه غيره» [الكاتب ١٩٩٠ : ١٤٤/٣] . (ALKATEB,1990:p3:144) . ونقل السجلماسي (ت بعد ٧٠٤) فحوى كلام الجاحظ وبعض لفظه حين عرض لمفهوم مصطلح (البيان) أيضا في قوله: «البيان : اسم مشترك، من قِبَلِ أنه مَقول بعموم وخصوص، إذ كان مقولا بعموم على كل شيء وقع فيه بيان على الإطلاق، فهو جنس وكُلِّيٌّ تحته أربعة أنواع ، وهي : الكلام ، والإشارة ، والحال، والعلامة» [السجلماسي ١٩٨٠ : ٤١٤] (ALSEJLAMASY,1980:414). ولم يفت السجلماسي في آخر كلامه على البيان وأنواعه الإشارة إلى إفادته من الجاحظ وكتابه (البيان والتبيين) [السجلماسي ١٩٨٠ : ٤٢١] . (ALSEJLAMASY,1980:p421) .

المحور الثاني

اقتران البحث في اللغة الصوتية بالبحث في الدوال الإشارية غير الصوتية في الدرس الحديث

أصبحت عناية الأوساط العلمية والثقافية المعاصرة بالحقيقة اللغوية من الظهور بمكان لا نظنها تحتاج معه إلى حديث مفصل يجلي بعض معالمها ، إذ لم تحظ ظاهرة إنسانية في العصر الحديث باهتمام كالذي حظيت به اللغة، لأنها في أيسر أوصافها وعاء فكر الإنسان، ومادة ثقافته ، ومقياس حضارته، وعنوان هويته، وخلف كل وصف مما ذُكر ومما لم يُذكر آفاق واسعة من المعارف المختلفة ربما لا تفي دراسة مستقلة باستعراض مجرد لعنواناتها البارزة أو اتجاهاتها الرئيسة، لذلك نكتفي هنا بما يقتضيه منهج المقابلة من إلمامة موجزة بجانب من جهود المحدثين اقترن فيه تفسير الحقيقة اللغوية ببيان مكانتها بين مجمل وسائل التعبير والاتصال عند الإنسان، ولاسيما الوسائل الإشارية غير الصوتية. ومن دواعي الإنصاف في هذا المقام تقديم جهود الغربيين في دراسة هذا الجانب، لأنهم كانوا الرادة إلى

الخوض فيه بمنظار حديث، والسباقين إلى بعثه وإثارته بمناهج جديدة في أقل تقدير.

جهود الغربيين

يقف رائد البحث اللغوي في العصر الحديث (فردنان دي سوسور) في طليعة علماء الغرب الداعين إلى دراسة اللغة في إطار علم سماه (علم الإشارات semiology)، لأن اللغة نظام من الرموز لا يختلف عن غيره من الأنظمة الإشارية التي تجمعها غاية واحدة هي التعبير عن المعاني أو إظهار الدلالات المختلفة . ودعوة (سوسور) هذه امتداد حقيقي، عن غير اتفاق، لما وجدناه من قبل في جهود الجاحظ التي تناول فيها أنواع الدلالات على المعاني، فهما يصدران عن مبدأ علمي واحد في النظر إلى أشكال الرموز أو الدوال المعبرة عن المعاني سواء أكانت لغة منطوقة أم علامات أشارية غير صوتية، ما دامت كلها تحقق غاية التواصل أو (البيان والفهم والإفهام) بحسب تعبير الجاحظ. وإذا كان الجاحظ قد انتخب من مصاديق هذه الحقيقة أمثلة لائم بعضها طبيعة عصره وبيئته، وبعضها يصدق في كل عصر كأحوال هيئة بعض جوارح الإنسان وإشاراتها الدالة على معاني الحب أو الشهوة أو البغض والعداء، وكامتلاء الحقائب للدلالة على الكرم، وكضخامة الجسم أو نحوله للدلالة على الغنى أو الفقر، وسوى ذلك من الأمثلة المذكورة في كلامه، أقول: إذا اختار الجاحظ التمثيل بهذه الشواهد الداخلة في حدّ ما يسميه المعاصرون (السيمياء) أو (علم الإشارات) فقد استعان (سوسور) بأمثلة حديثة، أو هي من معطيات الحضارة المعاصرة، كالإشارات العسكرية، وعلامات المرور، وبعض مظاهر السلوك الشخصي المتأثر بمفاهيم المدنية الحديثة. وبسبب سمة الريادة التي امتاز بها بحث (سوسور) وتأثيره في من جاء بعده من جهة، ولصلته الأكيدة بالإطار العام لموضوع دراستنا ، أي المقابلة بين الدوال الصوتية والإشارات، من جهة أخرى، آثرنا استعراض أبرز ملامحه في هذا الموضع من الدراسة. ذكرنا في موضع قريب أن (سوسور) دعا إلى دراسة اللغة في ضمن ما سماه (علم الإشارات seiology)، وقرر أنها، أي اللغة المنطوقة، من معطيات (اللسان) ، ولكنه وجدها تقبل التصنيف في ضمن هذا العلم في حين لا يمكن تصنيف اللسان في ضمنه. ومن جانب آخر في بحثه، شبّه (سوسور) نظام اللغة برموز إشارية غير صوتية فقال: «اللغة نظام من لإشارات (system signs) التي تعبر عن الأفكار، ويمكن تشبيه هذا النظام بنظام الكتابة، أو الألفباء المستخدمة عند فاقدي السمع والنطق، أو الطقوس الرمزية، أو الصيغ المهذبة، أو

العلامات العسكرية ، أو غيرها من الأنظمة، ولكنه أهمها جميعاً» [دي سوسور ١٩٨٥ : ٣٤] (DESUSUURE,1985:p34). ولم يكن علم الإشارات (السميولوجيا أو السيمياء) مزدهراً في وقت (سوسور) ازدهاره في السنوات التي أعقبت ظهور محاضراته في (علم اللغة العام) ، وربما لم يكن معروفاً بنحو تام، ولذلك قال:«ولما كان هذا العلم لم يظهر إلى الوجود ، فعلم اللغة هو جزء من علم الإشارات العام ، والقواعد التي يكتشفها هذا العلم يمكن تطبيقها على علم اللغة» [دي سوسور ١٩٨٥ : ٣٤]. (DESUSUURE,1985:p34) وعن قيمة الإشارات وأهميتها في دراسة اللغة الصوتية المنطوقة قال (سوسور): «أما الآن فأريد أن أؤكد أمراً واحداً حسب : وهو إن كنت قد نجحت في تحديد موضع معين لعلم اللغة بين العلوم الأخرى، فإن الفضل في ذلك يعود إلى أنني قد ربطت هذا العلم بعلم الإشارات ... إنني أرى أن مسألة اللغة هي في جوهرها مسألة علم الإشارات ، وجميع تطورات المسألة تستقي أهميتها من هذه الحقيقة الأساسية، فإذا أردنا أن ندرك الطبيعة الحقيقية للغة فعلينا أن نفهم ارتباطها بالأنظمة الأخرى للإشارات» [دي سوسور ١٩٨٥ : ٣٥] (DESUSUURE,1985:p35). وهكذا يعد (سوسور) أول من نبه من المحدثين على القيمة الحقيقية للوسائل الإشارية الأخرى غير اللغة الصوتية المنطوقة التي يمكن للإنسان التعبير بها عن أغراضه أو التواصل مع غيره بدعوته إلى دراسة اللغة داخل أنظمة علم الإشارات ، وذهب من جاء بعده إلى أبعد من ذلك حين عدّوا من ضمن نظام العلامات أو الدوال الداخلة في ضمن حدّ (السيمياء) أيضاً كل شي أحاط بالإنسان وله هيئة تشير إلى معنى خاص أو دلالة معينة بصرف النظر عن طبيعة ذلك الشيء أو جنسه أو حجمه . وقد وجدت دعوة (سوسور) صدى واسعاً عند من تلاه من الغربيين، فكرر الدعوة إلى مضمونها (Geoffry Sampson) الذي سمى الإشارات غير الصوتية الدالة على المعاني (رموزاً دلالية عامة) في قوله المنقول من كتابه (The form of Language) : «النظرية العامة للغة يجب ألاّ تمنحنا الرموز الصوتية العامة فحسب ، بل يجب أن تمنحنا أيضا رموزاً دلالية عامة . وعلم الأصوات ينبغي أن يتضمن كل الأصوات التي يمكن للأشخاص نطقها ، على حين يتضمن علم الدلالة كل الوحدات التي يريد الإنسان توضيحها» [زوين ١٩٨٦ : ٩٩] (ZWAIN,1986:p99) . وقرن العالم الانكليزي (فيرث) دلالة الكلمة المنطوقة وأثرها في الأداء بدلالة سواها من وسائط الاتصال الأخرى التي ذكر منها: الإشارات، والحركات، والعلامات غير الصوتية، ورأى (فيرث) «أن دلالة الكلمة

تنحصر في وظيفتها التي تتضح من معرفة وظائف الكلمات الأخرى في التركيب اللغوي، ومن تأثيرها في العالم الخارجي الذي استعملت منه، كالإشارات، والحركات، والعلامات اللغوية غير الفونيمية المرافقة لها في السياق الاستعمالي» [عبابنة والزعبي ٢٠٠٥ : ٨٢] . (ABABNEH&AKZUBI,2005:p82) .

وشهدت بعض مواقف الغربيين تطرفاً سلبياً تجاه النظرة إلى قيمة الوسائل الإشارية غير الصوتية إذا ما قيست بالكلام أو اللغة المنطوقة، وأشهر من مثلها، بحسب استقرائنا المحدود، (ماريو باي) في رأيه الذي يشبه تمام الشبه رأي القاضي عبد الجبار ، الذي تقدم عرضه في المحور الثاني من الدراسة؛ قال (ماريو باي): «ولكن الحقيقة الباقية حتى الآن أن لغة الحديث هي أهم وسائل الاتصال الإنساني وأوسعها انتشاراً. ومتوسط ما ينتجه الإنسان من حديث أكثر بكثير مما ينتجه من كلام مكتوب ، وإيماءات، وإشارات. ولهذا فإنه من السائغ للغوي ، على عكس دارسي فقه اللغة، أن يهتم أولاً باللغة المنطوقة ، ثم ثانياً باللغة المكتوبة باعتبارها، إلى حد كبير أو صغير، تمثيلاً صادقاً للغة المنطوقة ، وأخيراً ، وبدرجة ضئيلة إن وُجد اهتمام البتة، بنظم الاتصال الأخرى» [ماريو باي ١٩٩٨ : ٤٠] . (BAY,M,1998:p40). وفي مقابل هذا الموقف المفرط في التقليل من شأن القيمة التعبيرية لنظم الاتصال الإشارية المجردة أو غير الصوتية قد يلمح المتتبع موقفاً متطرفاً في الوجهة المقابلة عند (جومسكي) الذي تمثل دراساته أحدث حلقات البحث اللغوي في العصر الحديث ؛ فمن ضمن المسائل التي دعا (جومسكي) إلى التأمل فيها احتمال انتفاء الحاجة إلى الرمز الصوتي، أي الكلام المنطوق، إذا أمكن التفاهم بالتخاطر، ومفهوم التخاطر، بالضرورة، هو ما يتبادر إلى الخاطر من معان من غير طريق الرموز الصوتية ، وهنا يظهر احتمال إرادة (جومسكي) الوسائل الإشارية الأخرى غير اللغة الصوتية المنطوقة ، ولعل الذي حدا بـ (جومسكي) إلى هذه الدعوة، على الرغم من أن نتيجتها محتملة لا متيقنة، هو ما صرح به من أن الرمز اللغوي لا يخلو من عيوب ربما أثرت في أدائه، وكأنه يشير إلى كثرة تبدله أو تطوره عبر الزمن، أو إلى اختلاف جنسه بين لغة وأخرى؛ قال (جومسكي) : «إن أمكننا التواصل عن طريق التخاطر، فلن تبرز هذه النواقص. إن المكوِّن الصوتي تعبير ما (غير ضروري) بالنسبة للغة، وكذلك كجزء لا بأس به من عيبها، هكذا ربما يتأمل المرء» [جومسكي ٢٠٠٥ : ٧٥] (GOMSKY,2005:p75).

الدراسات العربية الحديثة

يغلب على الجهود الدلالية في الدراسات العربية الحديثة غير المصطبغة بالصبغة الأصولية الفقهية الكلامية تأثرها الواضح بثلاثة مؤثرات، اثنان منها لهما جذور قوية تربطهما بمستويين بارزين للبحث الدلالي القديم؛ أولهما المستوى الفني الذي رصد السمات البلاغية المتميزة في الأساليب العربية، ولاسيما في النص القرآني، والنماذج الأدبية الراقية في شتى عصور الأدب العربي «حيث تتبلور الدلالة بلاغياً ولغوياً ونقدياً جملة واحدة، وذلك عند التفاصيل الدقيقة التي تجعل الدال علامة يرمز إليها بالأشكال، والمدلول أمارة يؤكد عليها بالمعاني، والعلاقة القائمة بينهما نتيجة محورية عن التقائهما» [الصغير ١٩٨٨ : ٩] . (ALSAGHER,1988:p9) . وتكاد تخلص الجهود العلمية الحديثة السائرة في هذا الاتجاه لدلالة الرموز اللغوية المدونة أو المنطوقة ، أي إنها قلما تعنى بالدلالات المفادة من الوسائل الإشارية المجردة. والمستوى الآخر عقلي تنظيري ينطلق من القواعد المنهجية التي امتازت بها بعض المباحث القديمة التي تناولت أنواع الدلالات والمقاييس المتبعة في تقويمها أو تقديم بعضها على بعض من حيث كثرة الاستعمال، أو من حيث أهليتها في التعبير والأداء، وقد مرّ شيء منها في موضع سابق من الدراسة عند ذكر رأي القاضي عبد الجبار، وقد يصلح أن يكون منها كذلك الجانب المعياري من جهد الجاحظ، ولذلك لا تكاد تعنى الدراسات الحديثة المتأثرة بهذا المستوى البحثي القديم بدلالات الإشارة أيضاً إلا بحدود الوصف العام الذي يجمعها بغيرها من وسائل التعبير، وبوجه خاص اللغة المدونة أو الكلام المنطوق حيث «تقوم الإشارة بوظيفة الألفاظ في الدلالة على الأشياء ... ولقد قارنوا بين الإشارة والكلام ، وهناك من وحدّ بينهما في هذه المقارنة بشرط وجود المواضعة» [ناصر ١٩٩٩ : ١٤] (NASEER,1999:p14) . وأما المؤثر الثالث الأخير فهو أجنبي محض طبع بميسمه بعض الدراسات العربية الحديثة التي تناولت جوانب معينة من دلالات الرموز المختلفة على معانيها . ويقف الدكتور تمام حسان بجدارة في طليعة علماء العربية المحدثين الذين درسوا هذا الموضوع على وفق رؤية علمية ظهرت عليها بجلاء ملامح التأثر بالدراسات الغربية المعاصرة . ومن جهود الدكتور تمام المتميزة في هذا المجال بحث تضمنه كتابه (اللغة بين المعيارية والوصفية) قدم له بعرض قول (لويس) صاحب كتاب (اللغة في المجتمع) الذي قام الدكتور تمام نفسه بتعريبه وجاء فيه : «إن السلوك الإنساني في مواجهة العالم المحيط بالمرء يتم غالباً باستعمال الرموز ، ونحن نسمي هذا

السلوك الذي يتم بالرموز سلوكاً عقلياً» [حسان ٢٠٠١ : ١٠٨] (HASSAN,2001:p108) . وقد علق الدكتور تمام على هذا الرأي بقوله : «ويجدر بنا بعد ذلك أن نتكلم عن طبيعة هذه الرموز ، وأن ننظر مكانة الرموز اللغوية بين أنواع الرموز المختلفة ، وسنرى عند النظر إلى الرموز نظرة عامة أنها تنقسم إلى ما يساوي عدد الحواس الإنسانية : فهي : إما (١) لمسية ، أو (٢) ذوقية ، أو (٣) شمية ، أو (٤) سمعية ، أو (٥) بصرية» [حسان ٢٠٠١ : ١٠٨] (HASSAN,2001:p108) . والمنحى العام لدراستنا في الموازنة بين الجهود القديمة والحديثة يستلزم الإشارة هنا إلى أن ما ذهب إليه الدكتور تمام متأثر بما شاع في البحث الفلسفي القديم من تعيين (أنواع الإدراك) أو (أنواع الإحساس) لدى الإنسان بالحواس الخمسة بحسب ما تقدم ذكره في المحور الأول من الدراسة، وأكثر ما يعنينا من الإحصاء المتقدم الصنف الخامس ، أي (الرمز البصري) لوثاقة صلته بأجناس الإشارة ودلالاتها ، وقد قال الدكتور تمام في تفسير هذا الرمز : «أما البصري : فكل مرئي مقصود به معنى ؛ فالتلويح بالأعلام في سلاح الإشارة مجموعة من الرموز البصرية ، وكذلك ومضات الهليو ، وأضواء المرور في الطرقات، وأعلام الاحتراس من القطارات ، ورسم الجمجمة للدلالة على الخطر، وعقارب الساعة وأرقامها، كل أولئك رموز بصرية ذات دلالات معينة. وليست الكتابة إلا مجموعة من الرموز البصرية التي تدل موزعة على الحروف، ومجموعة من الكلمات منسقة على سياق» [حسان ٢٠٠١ : ١٠٩] (HASSAN,2001:p109) . ويلاحظ على تفسير الدكتور تمام للرمز البصري اقتصاره على ما كان مصطنعاً من أمثلة ، وإهماله الرموز الطبيعية ، كتلك التي ذكرها الجاحظ من قبل، على الرغم من أنها تتقدم في الوجود على الإشارات الاصطناعية، وربما تفوقها أهمية في أحيان كثيرة، وكان حري به أن لا يهملها لو أراد لبحثه القرب من الكمال. على أن الدكتور تمام حسان تعرض للرمز الطبيعي في كتاب آخر هو (اللغة العربية معناها ومبناها) بحديث يغلب عليه التأثر بالدراسات الغربية المعاصرة أيضاً حين قال : «أما علماء الرمز فقد حاولوا أن يقسموا معنى الرمز إلى : طبيعي ، وذهني ، وعرفي ، فقالوا : إن المعنى الذي يدركه المرء من النغمة الموسيقية معنى ناشئ عن طبيعة النغمة نفسها ، فإذا كانت على صورة ما أفهمت الحزن ، وإذا كانت على صورة أخرى أفهمت الفرح مثلاً ، وكذلك يدل البرق والرعد على احتمال المطر والصواعق ، كما تدل الخضرة على وجود الماء . أما المعنى الذي يُفهم من الأثر الذي يدل على سالك الطريق ،

وكذلك دلالة آثار المجرم على شخصه ، فهي معنى ذهني ، وأما دلالة الكلمة بالوضع على ما تُستعمل له فدلالة عرفية» [حسان ٢٠٠٤ : ٢٧] . (HASSAN,2004:p27) .

وفي الحديث المتقدم أهمل الدكتور تمام ذكر الإشارة الطبيعية الإنسانية، إن صح الوصف، أيضاً، ولم يستشهد بها أو بأحد أشكالها في التمثيل للرمز الطبيعي، على الرغم من أن الدلالتين اللتين ذكرهما لمثاليه ، أي النغمة الموسيقية ودلالتها على معنيي الفرح والحزن ، هما جزء يسير من جمهرة الدلالات المفادة من أجناس الإشارات . وبقي أمر مهم يثيره ما نقله الدكتور تمام حسان عن (علماء الرمز) تجدر بنا ملاحظته، هو تقسيمهم معنى الرمز إلى طبيعي، وذهني، وعرفي ، والذي نراه في شأن هذا التقسيم أنه متكلف غير دقيق ؛ ذلك أن أي جزء منه لا يكاد يصفو لجنس معين من أجناس الرموز سواء أكانت صوتية لغوية أم أشارية مجردة، فالرمز اللغوي قد يكون (طبيعياً) إذا حاكى مدلوله ، أي الأصوات الطبيعية، ونسبة هذه الرموز في أية لغة قليلة، وهو (ذهني) بالضرورة، إذا كان الذهن يعني العقل، فإدراك معنى أي رمز لا يتم من دون العقل ، وهو (عرفي) في الشطر الأعظم من مادة أي لغة، لأن أي رمز لغوي، سواء أكان محاكياً للأصوات الطبيعية أم لم يكن كذلك، لا بد من تعارف المجتمع على دلالته لكي يحصل التفاهم به ، وكذلك حال وسائل الاتصال الأخرى أو الرموز الإشارية المجردة، فهي (طبيعية عقلية عرفية) في الغالب، وفي المسألة تفصيلات كثيرة لا تسمح الحدود المرسومة لدراستنا بمتابعتها، ولعل في البحث الآتي الخاص ببيان الفوارق بين الإشارة والصوت ما يفي بإيضاح جوانب منها.

المحور الثالث

وجوه الموازنة بين لغة الإشارات واللغة الصوتية

أول ما تُظهره الموازنة بين لغة الإشارة واللغة المنطوقة، من نواحي الاتفاق والاختلاف، ما تقدمت الإشارة إليه في موضع سابق من أن اللغة المنطوقة نظام من الرموز الصوتية له خصوصية مستقلة في كل لغة من لغات البشر التي بلغت عدتها المعروفة الآن أكثر من (٤٠٠٠) لغة، في حين تعد لغة الإشارة نظاما من الرموز الإشارية العامة يكاد يتعارف البشر كلهم على دلالاتها ابتداء، لذلك لا تقتصر معرفتها على جماعة أو فئة منهم بنحو ما تقتصر معرفة اللغة الصوتية على أهلها ، فدلالات الإشارات الطبيعية والمصنوعة التي تقدم ذكرها في كلام كل من الجاحظ و (سوسور) والدكتور تمام حسان، على سبيل المثال، لا يعجز عن

إدراكها الإنسان في أي مكان من الأرض بصرف النظر عن جنسه أو عرقه أو طائفته. ومن نواحي الاتفاق بين اللغتين الصوتية والإشارية، بحسب ما ظهر من البحث المتقدم أيضاً ، اتحادهما في الهدف أو الغاية، وكذلك حال كل وسيلة يوظفها الإنسان في التعبير عن أغراضه ومراميه. وبقيت وجوه اتفاق واختلاف أخرى بين اللغتين ربما لم تتبين ملامحها بجلاء في ما تقدم من بحث، أو هي مما تستدعي بعض مقوماتها بسطا تعذّر تحققه في البحث المتقدم، لذلك رأينا إكمال الحديث عنها في هذا المحور من الدراسة.

وجوه الاتفاق

بعد وحدة الوظيفة أو الغاية الجامعة بين الرموز الصوتية والإشارية يمكن تمييز ثلاثة وجوه أخرى تجمع بينهما أيضاً هي: وحدة المرجع الذي يحيلها جميعا إلى تكوينات لها دلالات معينة في خزينه . والوجه الثاني : تشابههما من حيث التفاوت في درجة الأداء أو مستوياته. والوجه الأخير: اشتراك مصدريهما اشتراكاً نسبياً في فهم طبيعة وظيفتيهما وإدراك تأثيرهما في المتلقي.

وحدة المرجع

من وجوه الشراكة بين الصوت والإشارة أن المخ هو مركز ترجمتهما إلى المعاني أو الدلالات المختلفة، وتكوينه المادي واحد لدى الإنسان، ولذلك اعترضنا من قبل على ما نقله الدكتور تمام حسان من تخصيص (المعنى الذهني) بالرمز اللغوي المسموع أو المكتوب فقط، في حين أظهرت الدراسات الحديثة أن «المخ لدى الإنسان مزوّد، بسخاء، بما يسمى مناطق الترابط، وهي المناطق التي تربط بين مراكز الإحساس للبصر والسمع واللمس معاً، وتتركز الروابط المسؤولة عن وظائف الكلام في أحد شقي المخ فقط (الشق الأيسر عادة) حيث توجد التركيبات الترابطية المتخصصة التي تقوم بالتحويل الضروري للإشارات البصرية والسمعية إلى تكوينات لفظية» [سيد يوسف ١٩٩٠ : ١٥٩ - ١٦٠] (YOUSEF1990:P159-160)

تفاوت مستويات الأداء

مستويات أداء الصوت اللغوي المجرد متفاوتة من حيث الشدة، وقد أدرك القدماء هذه الصفة بالملاحظة الشخصية، وذلك في معرض الحديث عن السمات التي تميز بعض الأصوات من بعض مثل (الطول) و (الكمية) [السيوري ١٤٠٥ هـ: ٨٧] (ALSAYURI, 1405 :p 87) . وأدرك المحدثون هذه الصفة الصوتية أيضا ، قال الدكتور إبراهيم أنيس: «ليس صوت الإنسان في أثناء حديثه ذا شدة

واحدة أو درجة واحدة ، بل هو متعدد الشدة والدرجة» [أنيس ١٩٩٩: ١٠ – ١١]. (ANIS, 1999 :p 10-11). والعلة في اختلاف درجات الصوت الإنساني، إن لم تكن عضوية أو مرضية ، هي طلب التناسب بين مستوى الصوت والمعنى الذي يراد التعبير عنه ، فلا يرتفع الصوت أو ينخفض أو يمتد أو يُختلس أو تتغير نبرته بأي شكل كان إلا لكي يتناسب مع غاية الكلام أو معناه ، قال الدكتور إبراهيم أنيس أيضاً في كلامه على ما سماه (موسيقى الكلام Intonation) : «برهنت التجارب الحديثة على أن الإنسان حين ينطق بلغة لا يتبع درجة صوتية واحدة في النطق بجميع الأصوات . فالأصوات التي يتكون منها المقطع الواحد قد تختلف في درجة الصوت ، وكذلك الكلمات قد تختلف فيها . ومن اللغات ما يجعل لاختلاف درجة الصوت أهمية كبرى ، إذ تختلف فيها معاني الكلمات تبعاً لاختلاف درجة الصوت حين النطق بها . ومن أشهر هذه اللغات اللغة الصينية ، إذ قد تؤدي الكلمة الواحدة فيها عدة معان ، ويتوقف كل معنى من هذه المعاني على درجة الصوت حين ينطق بالكلمة . ويمكن أن نسمي توالي درجات الصوت بالنغمة الموسيقية» [أنيس ١٩٩٩ : ١٤٢ – ١٤٣] . (ANIS, 1999 :p 142-143) . والذي أشار إليه الدكتور إبراهيم أنيس يتحقق في العربية أيضاً ، وقد عدّه أستاذنا الدكتور فاضل السامرائي من عناصر الجملة العربية وسماه (النغمة الصوتية) بدل (موسيقى الكلام) ، ومن ضمن ما قاله في تفسير النغمة الصوتية : «هي ذات دلالة على المعنى ، فالجملة الواحدة قد يختلف معناها باختلاف النغمة، كأن تقول : (زيد عنده مال) وتشد صوتك على (مال) وتفخم الصوت فيه، فيكون المعنى : أنه ذو مال كثير أو متعدد ونحو ذلك. وتقول: (عنده مال) وترقق الصوت وتكسره ، فيكون معناه: أنه ذو مال قليل لا يعتد به ونحو ذلك» [السامرائي ٢٠٠٢ : ١/١١١] (ALSAAMERI, 2002 :p1:111) . ثم عضد الدكتور السامرائي قوله بكلام لابن جني يفيد الرأي نفسه ، ونقل كذلك أجزاء من كلام الدكتور إبراهيم أنيس الذي ذكرناه قريباً . ويبدو أن اختلافات درجات الصوت المعبَّر عنها بـ (النغمة الصوتية) أو (موسيقى الكلام) وما ينجم عنها من تأثيرات في المعنى ظاهرة تكاد تعم أكثر اللغات . وممن ذكرها من المعاصرين أيضا (جومسكي) الذي سماها (الصفات التنغيمية) ورأى أنها تُكمِّل نقص المعنى المعجمي للمفردات عندما قال: «إن المكوِّن الصوتي مسؤول عن جوانب أخرى يكون فيها تصميم اللغة (غير تام). فهو يتضمن عمليات وراء تلك التي تكون مطلوبة لأي نظام شبه لغوي، وهذه تدخل صفات وعناصر جديدة غير موجودة في

المفردات المعجمية : الصفات التنغيمية، والصوتيات المغلقة» [جومسكي ٢٠٠٥: ٧٤] (GOMSKY,2005:p74). هذا ما يخص الرموز الصوتية من حيث تفاوت مستويات أدائها أو اختلاف شدتها ودرجتها، وأما الرموز الإشارية فهي ليست على مستوى واحد أيضاً ، ولم نجد بين أيدينا جهد سابق يبحث في هذه الحقيقة بنحو ما وجدناه في شأن الرموز الصوتية، ولكن نكاد نطمئن إلى تحققها بالاعتماد على الملاحظة الشخصية في استقراء شواهد الموضوع التي تقدم التنويه بها في مواضع سابقة من الدراسة كعلامات التحذير من المخاطر بحسب درجة الخطر ومستواه.

إدراك الأثر والتحكم بالمؤثر

يدرك أصحاب اللغة أو المتكلمون بها بنحو عام بعض المفاهيم أو المبادئ التي قد تبلغ حدّ القوانين الضابطة لبنية الكلام ، ولاسيما في ما يتعلق بالأصوات المؤثرة في دلالة التراكيب والمتحكمة بها لا في دلالة الألفاظ المفردة ، أي الأصوات المعبرة عما يناسبها من معان داخل إطار الأنظمة التركيبية في اللغة ، وأنسب ما يمثلها في العربية أصوات حركات الإعراب أو علاماته التي تلحق أواخر ألفاظها في الغالب. وتسمي بعض الدراسات الحديثة هذا الإدراك بـ (نظرية الحس اللغوي) [الحمادي ١٩٩٠ : ٣٣ – ٤٨] (ALHAMADY,1990:p33-48) . ولو صدق تقديرنا بأن يبلغ الإدراك حداً من التواتر عند أهل اللغة بحيث يصبح في مرتبة التنظير المطّرد ، أقول : لو صدق التقدير وصار الإدراك بمستوى (نظرية) ، فإن فحوى هذه النظرية متحقق في لغة الإشارة بمقدار قد يفوق أحياناً مقدار تحققه في الكلام المنطوق أو اللغة الصوتية ، وبنحو لا يمنع من القول بوجود (نظرية الحس الإشاري) بجانب (نظرية الحس اللغوي)، ولكن مع بعض الفوارق التي قد يكون منها أن صاحب اللغة يدرك تأثيرها ويمتلك التحكم برموزها بيسر في الغالب ، في حين يشاركه صاحب الإشارة في الشطر الأول من هذه الحقيقة ، أي إنه قد يدرك أثر إشارته في المتلقي، بيد أنه لا يملك ردها أو تغيير هيئتها أو التحكم بها من حيث المنع والإطلاق، أو تغيير صفتها بعد صدورها بالقدر الذي يملكه صاحب اللغة الصوتية المنطوقة.

وجوه الاختلاف

هناك ثلاثة وجوه، في تقديرنا، هي أهم مواضع الاختلاف الأخرى بين اللغتين الصوتية والإشارية، يتعلق الأول بآلية إنتاج الدوال المختلفة فيهما من حيث اليسر والتعقيد. ويتصل الثاني بمقدار قابلية كل منهما للتطور والنمو. والوجه الأخير

خاص بالعلاقة بين الدال والمدلول فيهما من جهة القصد والاعتباط، وهو أهم الوجوه الثلاثة.

آلية إنتاج الدوال الصوتية والإشارية ALSEIGH-ALHAMAD-

تتميز عملية إحداث الصوت اللغوي بأنها معقدة تدخل فيها أجهزة وأعضاء ليست بالقليلة، وكذلك عملية استقبالها واستخلاص دلالاتها، فهي عملية معقدة أيضاً يقوم بها أكثر من عضو، بل ربما فاقت عملية إنتاج الصوت وإصداره تعقيداً [الصيغ ١٩٩٨ : ٢٣ - ٥٠، والحمد ٢٠٠٢ : ٤١ - ٦٦] . (ALSEIGE1998:P23-50&ALHAMAD2002:P41-66) وللكلام آلية مركبة تبدأ حين «يصدر الجهاز العصبي عند المتحدث أوامره إلى الجهاز النطقي عنده ، فتصدر اللغة وتمضي على شكل موجات صوتية في الهواء ، فيتلقاها المتلقي بجهازه السمعي، ثم تنتقل بعد ذلك إلى جهازه العصبي ، فتترجم هذه الرموز الصوتية إلى معانيها المرتبطة بها»[حجازي ١٩٩٢ : ١٠] (HIJAZI, 1992:p10) . ولا تقتصر سمة التعقيد في الصوت الإنساني على آلية إنتاجه فقط ، بل تشمل صفاته أيضاً ، فـ «الصوت الإنساني معقد، إذ يتركب من أنواع مختلفة من الشدة، ومن درجات صوتية متباينة، كما أن لكل إنسان صفة صوتية خاصة تميز صوته من صوت غيره من الناس» [أنيس ١٩٩٩ : ١٠ - ١١] . (ANIS, 1999 :p 10-11) . وأما عملية إنتاج الرمز الإشاري فهي عملية بسيطة غير مركبة ولا معقدة بقدر تعلقها بالإنسان ، إذ يقوم أي إنسان بإعدادها من مكونات مادية إن كانت صناعية ، أو يقوم بافتعالها إن كان مصدرها بعض جوارحه، وصفة اليسر في ما لم يتعلق بالإنسان من الإشارات الطبيعية أكبر ظهورا.

القابلية للتغيّر

قابلية الرموز الصوتية التي هي عماد اللغة المنطوقة للتبدل أو التغير أو التطور حقيقة ثابتة مؤكدة ، وفي جواب عن سؤال نصه: (ترى أيمكن أن يتوقف تطور الأصوات في لغة من اللغات؟) قال أستاذنا الدكتور حسام النعيمي : «إن الإجابة السريعة عن هذا السؤال ستكون ولا شك بالنفي، لأن اللغة التي تتوقف عن التطور الصوتي لا بد أن تكون قد فارقت الحياة» [النعيمي ١٩٨٩ : ١٢] (ALNUAIMI, 1989:p12). وحتى في أكثر اللغات ثباتاً وأعظمها محافظة على أصولها كاللغة العربية نجد التغيير قد تسرب إلى عدد من أصواتها، قال الدكتور النعيمي في هذا الشأن: «درس علماء العربية أصواتها ونقلوا لنا وصفها، وأول ما وصل إلينا من

ذلك كما تقدم ما جاء في مقدمة (كتاب العين) للخليل، على خلاف في نسبته كاملاً، وما جاء في كتاب سيبويه، وبقي هذا الوصف لمخارج الحروف وصفاتها وتعاملها يُنقل في كتب العربية إلى أيامنا هذه، ولما بدأت الدراسات الصوتية الحديثة تفيد من الأجهزة وصور الأشعة في تحديد المخارج وبيان الصفات، رأينا اختلافاً ظاهراً في عدد من الحروف بين ما قاله علماء العربية وما وصل إليه المحدثون» [النعيمي ١٩٨٩: ١٥] (ALNUAIMI, 1989:p15). وثمة فجوة قد تحدث من جراء تغيّر الصوت وبقاء رمزه أو الشكل المعبر عنه ثابتاً على حاله، وهنا تظهر الحاجة إلى اختراع رمز جديد ، ولا شك في أن اختلاف رموز الصوت الواحد وتباين أشكالها وجه من وجوه تطور الصوت نفسه أو انحرافه عن طريقة نطقه الأولى، ولكن تعدد رموز الصوت الواحد لا يخلو من مفارقة تتطلب جهداً مضاعفاً لتلافي آثارها، قال الدكتور النعيمي في هذا الشأن أيضاً: «إن ثبات الكتابة بما فيها من تقييد، وتحوُّل الأصول اللغوية بما يدخل عليها من آثار التطور والتعامل، أدى بمرور الزمن إلى وجود شيء من التباعد بين الرموز المكتوبة وما تعبِّر عنه من صوت منطوق» [النعيمي ١٩٩٨ : ٤٠]. (ALNUAIMI, 1998:p40) . وحقيقة تطور الأصوات اللغوية أو تغيّر رموزها تمتد إلى حقيقة أكبر تطال المستويات الدلالية والتركيبية في أية لغة ، لأن «اللغة كائن حي، يتطور على ألسنة المتكلمين بها، فينشأ من هذا التطور اختلاف بين لغة عصر والعصر الذي يسبقه، وهنا يحدث الصراع بين أنصار الشكل القديم وأنصار الشكل الجديد، وبعد فترة يصبح قديماً ما كان بالأمس جديداً ، فيتصارع مع جديد آخر، وتضمحل لغة العصر الأسبق أو تندثر.. تلك سنة الحياة، وتاريخ اللغات كلها يشهد بهذا، ولا نعرف لغة على ظهر الأرض جمدت على شكل واحد مئات السنين» [عبد التواب ١٩٨٣ : ٧ - ٨] (ALNUAIMI, 1983:p7-8) . النتيجة الحتمية للتطور اللغوي بمستوياته كلها إذن: انفصال بين مرحلة وأخرى من عمر اللغة، أو انقطاع بين عصر وعصر من عصورها، وليس في لغة الإشارة شيء من ذلك ، ولاسيما في إطارها الطبيعي غير المصطنع الذي لا يخضع لسنة التطور؛ فدلالة الخضرة على وجود الماء في العصور السابقة هي نفس دلالتها في عصرنا الحاضر، لأنها جوهرية ثابتة، ومن ثم لا صراع ولا فجوة ولا انفصال ولا اضمحلال ولا تباين في الرموز الإشارية يعيق الأداء بالمقدار الذي يمكن احتمال وقوعه في أداء الأصوات اللغوية ورموزها. وحتى في الجوانب الاختيارية غير الحتمية لتطور اللغة تتصدر لغة الإشارة اللغة الصوتية في الحصانة من هذه

المآخذ، ومن الشواهد على ذلك أن اللغة العربية لها طرائق معروفة في تنميتها كالقياس، والاشتقاق، والقلب، والإبدال، والنحت، والارتجال، والاقتراض [أنيس ٢٠٠٣ : ٧] (ANIS, 2003 :p 7) ، وهي كلها من وجوه التطور اللغوي الاختياري التي قد تتحقق في عصر ما أو في مكان معين لو عمد إليها بعض أهل اللغة عمداً ، ولذلك قد يتفاجأ بآثارها من لم يسبق له العلم بوجودها ؛ في حين ليست بلغة الإشارة حاجة لأمثال هذه الوسائل ، لأن معظم رموزها ثابتة لا تقبل التغيير، إلا ما كان من بعض طرائق تنمية الإشارات في تعليم الصم أو البكم أو الذين يعانون من عيوب النطق وأمراض السمع، إذ تم ابتكار وسائل معينة تساعد في إبراز الإشارات أو تجسيمها لكي تصل إلى هؤلاء بأسلوب واضح [ابن عمر١٩٨٦: ٧٦] (OMAR, 1986 : 76) ولكن هذه الوسائل اصطناعية ليست طبيعية، فضلا عن أنها لا تباشر بنفسها الدلالة على المعاني أو التعبير عنها، بل هي وسائل مجردة تساعد الرمز الإشاري على تحقيق وظيفته.

علاقة الرموز الصوتية والإشارية بدلالاتها بين القصد والاعتباط

هذا هو الوجه الأخير من الوجوه الفارقة بين اللغة الصوتية واللغة الإشارية، وهو يمثل الخلاف الجوهري الظاهر بين اللغتين بحسب ما يأتي بيانه.

علاقة الرموز الصوتية بمعانيها

مسألة التناسب بين طبيعة الألفاظ ومعانيها مما وقف عنده القدماء، وربما كان الرأي الراجح عندهم انتفاء المناسبة في معظم مادة اللغة [الآمدي ٢٠٠٣: ١/١٠١] (ALAMIDI, 2003:p1:101). وكادت تتفق كلمة الدراسات الحديثة على أن العلاقة بين الرمز اللغوي أو الصوت ومعناه أو مدلوله علاقة فطرية اعتباطية غير خاضعة لقانون معين. وتشمل هذه الحقيقة اللغة بمستوياتها كلها: الأصوات المجردة ، والألفاظ المفردة، وأنظمة التركيب . ومما ذكرته بعض الدراسات الحديثة في هذا الشأن، بحدود الصوت المجرد قبل ائتلافه في وحدات صرفية مفردة، أن «اللغة نظام من الرموز الصوتية الاعتباطية التي يتم بواسطتها التعارف بين أفراد المجتمع ... وتكون هذه الأصوات في نشأتها الأولى اعتباطية في ارتباطها بغيرها لتكون اللبنة الرئيسية في اللغة (المبنى الصرفي) أو المورفيم ... ويكون اتحاد هذه الأصوات وتواليها في تشكيل صوتي (Phonological System) اعتباطياً كذلك... وبعد هذا الاتحاد الاعتباطي يرتبط هذا المبنى بمعناه الذي يشير إليه ارتباطاً عرفياً اجتماعياً قابلاً للانتقال في معناه ، فيشير إلى معنى أصل (معجمي) وآخر مجازي أو سياقي» [عمايرة ١٩٨٧: ٢٧ – ٢٨. وينظر: الياسري ٢٠٠٧:

٣٩، وحسان ٢٠٠٤ : ٢٩٢، ونور الدين٢٠٠٣: ٤٩، وسلمان ١٩٩١: ٩، ١٠]
(EIMAYRAT1987:P27&ALYASIRI2007:P39&HASSAN2004:P292&NOUREDDINE2003:P49&SALMAN1991:P9)

وتكاد تعم هذه الحقيقة لغات البشر جميعها، قال (سوسور): «إن العلاقة بين الدال(Signifier) والمدلول (Signinfied) اعتباطية. ففكرة (الأخت Sister) لا ترتبط بأية علاقة داخلية بتعاقب الأصوات (R ـ S ـ O) التي تقوم بوظيفة الدال في اللغة الفرنسية، فهذه الفكرة يمكن التعبير عنها باستخدام أي تعاقب صوتي آخر» [دي سوسور١٩٨٥: ٨٦– ٨٧. وينظر: بالمر ١٩٨٥: ٣٧ ، وأنيس ١٩٨٤: ٧٨]

علاقة الرموز الإشارية بمعانيها

صلة جنس الإشارة غير الصوتية بمدلولها من مفردات موضوعنا التي لم يتيسر لنا الوقوف على جهد سابق يبحث في مضمونها من جانبه العام متمثلا بكل إشارة مجردة لها دلالة معينة ، لذلك اعتمدنا في إيجاز تقدير الوجه الراجح فيها على الملاحظة الشخصية والقناعة المستندة إلى فهمنا لطبيعة الخطاب في شواهد الإشارات التي تم استقراء دلالاتها في محاور الدراسة السابقة . والنتيجة الابتدائية التي يمكننا الاطمئنان إليها هي وجود مناسبة قوية بين جنس أية إشارة ومدلولها جعلت من (لغة الإشارات) لغة عالمية واحدة سواء أكانت رموزها طبيعية أم مصطنعة ، بالضد من العلاقة بين الرمز اللغوي الصوتي ومعناه ، فهي اعتباطية عفوية أدت إلى اختلاف لغات البشر وتباينها . ولم يشذ عن حدود هذه النتيجة أي رمز طبيعي ذكرته الدراسات الحديثة المعنية بهذا الشأن ، وكذلك الرموز المصطنعة كالعلاقة الظاهرة بين رمز الجمجمة ومعنى الخطر ، أو كالرسوم الموضوعة على أغلفة المؤن والآلات التي تفيد أساليب حملها أو طرق حمايتها ، وقل مثل ذلك عن أضواء المرور وعلاماته المثبتة على الطرقات وفي المطارات ومحطات القطار ، والعلامات العسكرية ، والأعلام ، وغير ذلك من الرموز والإشارات التي لا يصعب على الناظر المدقق ملاحظة التناسب الموضوعي بينها وبين ما تدل عليه من معان مختلفة.

الخاتمة

نتائج عدة خلصنا إليها من مجمل محاور الدراسة، تبدأ بالتنبيه على وجود أسلوب متميز من أساليب البحث اللغوي في قضية مهمة من قضاياه، وقوام الأسلوب المقصود المقارنة بين الوسيلتين الرئيستين اللتين اتخذهما الإنسان في

التواصل مع بني جنسه ومحيطه بنحو عام ، وهما اللغة الصوتية المنطوقة والإشارات المرئية بشتى أصنافها.

وبسبب من تميز هذا الأسلوب وقيمة القضية التي عالجها استمر الاعتماد عليه منذ مرحلة متقدمة من مسيرة التفكير اللغوي في التراث العربي الإسلامي حتى العصر الحديث الذي استقرت فيه دراسة اللغة على مناهج علمية محكمة.

وقد وجدنا في الجهود القديمة التي قارنت بين اللغتين الصوتية والإشارية نظرات مختصرة ومباحث مفصلة سارت، على نحو الإجمال، في أربعة مستويات ، الأول : التقعيد أو التنظير المنهجي المستند إلى إدراك العلاقة الجوهرية بين الأصوات والإشارات من جهة تصنيفها بأنها رموز تدل على المعاني، وقد أدى إدراك هذه العلاقة إلى اقتران طرفيها عند تحديد القدماء لمفاهيم مصطلحات المعرفة المتصلة بهما كـ (العبارة) و (الإشارة) و (الدلالة) و (الدليل) والوجوه الضابطة لكل مصطلح فيهما.

والمستوى الثاني: توصيف مجرد لوظيفة الكلام أو الصوت المنطوق بجانب توصيف وظيفة الإشارة في أداء المعاني أو الدلالات، والوصف المقارن هنا عام لم يختص بوظيفة بعينها ، كما لم يتضمن استشهادا أو مثالا.

والمستوى الثالث : هو الذي يصحب الوصفَ فيه موقفٌ محددٌ من قيمة كل من الرموز الصوتية والإشارية ، فتكون القيمة متساوية في الجهتين، أي عدم تفضيل أحدهما على الآخر ما داما يشتركان في الوظيفة ، مع ملاحظة تقدم الإشارة على الصوت في المتخيل من أولية زمن التعبير عند الإنسان لا في المقومات الفنية أو أسباب قوة الأداء التي يتفوق فيها الصوت ، ولاسيما في مواضع التعبير عن الأشياء البعيدة أو المعاني الذهنية أو المجردة ، وممن له رأي تجسد فيه الوصف المقترن بموقف هذه نتيجته في التقويم، بحسب قناعتنا، كل من: مسكويه، ثم أبي حيان التوحيدي. وربما تكون نتيجة التقويم رجحان الصوت على الإشارة في حال النظر إليهما بمنظار لم تراع فيه المقومات الخاصة بكل واحد منها، ومن المألوف جدا أن يميل إلى هذه القناعة أصحاب المذاهب الفكرية التي لا يحتمل تزاحمها مع غيرها في المناظرة وإثبات الوجود تراخيا في البحث عن أي الوسيلتين أقدر على استيعاب النظر العميق وإظهار المفاهيم الدقيقة، إذ لا شك في ملاءمة اللغة الصوتية لهكذا منحى في التفكير والأداء، ومن هؤلاء: القاضي عبد الجبار المعتزلي .

والمستوى الأخير: جمعَ فحوى المستويات المتقدمة كلها حين عزز المنحى التنظيري والجانب الوصفي بشواهد أبانت عن المغازي المقصودة بأوضح عبارة. وقد عرفنا من رواد البحث التراثي المقارن عند هذا المستوى أعلاما مشهورين نال الجاحظ مرتبة الصدارة من بينهم ، إذ عرض في (البيان والتبيين) و (الحيوان)، وهما من أسير كتبه وأعلاها قيمة علمية ، وسائل التعبير الرئيسة عند الإنسان (من لفظ وغير لفظ) بحسب تعبيره ، فذكر منها : (اللفظ ، ثم الإشارة ، ثم العقد ، ثم الخط ، ثم الحال التي تسمى نصْبَة). وفي معرض حديثه عن هذه الوسائل الذي امتاز بالرصانة والموضوعية يجد القارئ ميلا واضحا إلى ترجيح التعبير بالإشارة في مواضع بعينها .

ووجدنا في الجهود الحديثة مباحث اقترن فيها تفسير الحقيقة اللغوية الصوتية ببيان مكانتها بين مجمل وسائل التعبير والاتصال عند الإنسان ، ولاسيما الوسائل الإشارية غير الصوتية ، وقد كان المشاهير من علماء اللغة الغربيين الرواد في هذه المباحث بصفتها العلمية المنهجية.

ويقف أشهر علماء اللغة في العصر الحديث (فردنان دي سوسور) في الطليعة من أولئك العلماء حين دعا إلى دراسة اللغة في إطار علم سماه (علم الإشارات semiology) ، لأنه رأى اللغة نظاما من الرموز لا يبتعد كثيرا عن الأنظمة الإشارية الأخرى من حيث وحدة الغاية في التعبير عن المعاني أو إظهار الدلالات المختلفة ، بل لقد شبه (سوسور) نظام اللغة تشبيها صريحا برموز الإشارات غير الصوتية ، وأرجع نجاحه في الارتقاء بعلم اللغة الحديث إلى ربطه هذا العلم بعلم الإشارات . ويشبه فحوى رأي (سوسور) ما وجدناه عند الجاحظ من بحث في الوسائل المختلفة التي يجمعها تحقيق غاية التواصل، ومنها : اللفظ والإشارة .

وممن تأثر بمنهج (سوسور) ودعوته من الغربيين أيضا (جيفري سمبسون) الذي قال باشتمال علم الدلالة على كل رمز أو إشارة يريد الإنسان منها معنى معينا لا الرموز الصوتية فقط .

ومنهم (فيرث) صاحب نظرية سياق الحال الذي عد الإشارات من قرائن السياق المهمة في استخلاص المعاني أو الدلالات .

ومنهم (ماريو باي) الذي شابه موقفه في البحث المقارن بين الصوت والإشارة موقف القاضي عبد الجبار من جهة تغليب التعبير باللغة الصوتية المنطوقة على التعبير بلغة الإشارة .

ومنهم (جومسكي) الذي غالى في إعلاء شأن القيمة التعبيرية لنظم الاتصال الإشارية حين دعا إلى التأمل في احتمال انتفاء الحاجة إلى الرمز الصوتي إذا أمكن التفاهم بالتخاطر القائم على الإشارة غير الصوتية .

وأما الجهود العربية الحديثة في البحث المقارن بين الصوت والإشارة فأشهرها وأحراها بالتقدمة في استخلاص النتائج جهود الدكتور تمام حسان في ضمن مباحث متميزة في كتابيه (اللغة بين المعيارية والوصفية) و (اللغة العربية معناها ومبناها) ، وقد غلبت عليها سمة التأثر بالدراسات الغربية التي قام الدكتور تمام نفسه بتعريب بعضها . وقد عني الدكتور تمام في بعض مباحث الكتاب الأول باستقراء أنواع الرموز التي يستعملها الإنسان في محيطه فكان استقراؤه واسعا ، إذ انتهى إلى أنها تساوي عدد حواس الإنسان ، فهي : لمسية ، وذوقية ، وشمية ، وسمعية ، وبصرية . وفي تفسير الرمزي البصري ذكر الدكتور تمام جمهرة من الشواهد أو الأمثلة المصنوعة ، كالتلويح بالأعلام ، وومضات الضوء ، وأضواء المرور ، وأعلام الاحتراس ، ورسم الجمجمة ، وعقارب الساعة وأرقامها ، مع التنبيه على العلاقة الجوهرية بين هذه الرموز البصرية ذات الدلالات الواضحة والرموز الصوتية للغة ، أي الحروف الدالة على كل صوت من أصوات اللغة . وأهمل الدكتور تمام في البحث المشار إليه سابقا الرموز أو الإشارات الطبيعية ، كتلك التي ذكرها الجاحظ من قبل ، ولكنه ألم بالإشارات الطبيعية في بعض مباحث كتابه الآخر حين عرض ما قام به (علماء الرمز) من تصنيف الرموز إلى طبيعية ، وذهنية ، وعرفية ، مع الاستشهاد لكل رمز بشواهد تحدد مجال دلالته .

وكانت نتائج البحث في وجوه الموازنة بين لغة الإشارة واللغة الصوتية ، اتفاقا واختلافا ، بحدود ما يمكن استخلاصه منها في الجهود القديمة والحديثة التي قرنت بينهما في الدراسة ، تعيين وجه عام في الاتفاق هو : وحدة الهدف أو الغاية في التعبير عن شتى الأغراض والدلالات ، ووجه عام في الاختلاف هو : اقتصار معرفة دلالة الرمز الصوتي على أهل اللغة التي ينتمي إليها ذلك الصوت ، وشيوع دلالة الرمز الإشاري بين عامة البشر ، سواء أكان طبيعيا أم مصطنعا .

وثمة وجوه أخرى تلتقي فيها اللغتان ، ووجوه تختلفان فيها ، فمن الأولى ، أي وجوه الاتفاق : وحدة المرجع الذي يحيل كلا من الرموز الصوتية والإشارية إلى تكوينات لها دلالات واضحة ، والمرجع المقصود هو عقل الإنسان أو دماغه . ومنها : تشابه الرمز الصوتي والرمزي الإشاري من جهة تباين مستويات الأداء ، فما كل الرموز الصوتية متساوية في درجات الأداء ، وكذلك الرموز الإشارية .

ومن الأخرى ، أي وجوه الاختلاف : اليسر في إنتاج الرموز الإشارية بالقدر المتعلق منها بالإنسان ، ناهيك بما لا يد للإنسان في صناعته من الرموز الطبيعية ، وكذلك اليسر في تلقي دلالتها بالقياس إلى تعقيد إنتاج الرموز الصوتية وواسطة انتقالها وتفسير دلالاتها . ومنها : قابلية الرمز الصوتي للتطور في أية لغة حية ، فضلا عن وجود شواهد تؤكد وقوع التغيير في بعض الرموز الخطية المعبرة عن بعض الرموز الصوتية في بعض اللغات ، في حين امتاز الرمز الإشاري ، ولاسيما الطبيعي ، بالثبات في غالب الأحيان . ومنها خلاف جوهري فارق بين اللغة الصوتية واللغة الإشارية من جهة وجود علاقة بين الرمز ومعناه فيهما ، إذ العلاقة بين الرمز اللغوي أو الصوتي ومعناه علاقة فطرية اعتباطية لا تخضع لضوابط معينة غير التواضع على ما يؤديه كل رمز من دلالة في الشطر الأعظم من الرموز الصوتية ، في حين قامت الرموز الإشارية ، ولاسيما التي يخترعها الإنسان منها ، على أساس وجود مناسبة قوية بينها وبين دلالاتها ، وقد تحققت هذه الصفة في معظم ما عرضته الدراسة من الرموز الإشارية المذكورة في المباحث القديمة والحديثة . هذه أهم النتائج التي سبق تفصيل مقدماتها في محاور الدراسة ، وربما انفتح ذهن القارئ على ما لم يتسن لنا إدراكه من نتائج أخرى في ما بسطته الدراسة من جهود القدماء والمحدثين الخاصة بالبحث الجامع بين لغة الإشارات واللغة الصوتية المنطوقة .

المصادر

- ابن أبي الإصبع المصري(١٩٥٧) : بديع القرآن ، مط . نهضة مصر، القاهرة .
- آل ياسين،د.محمد(١٩٧٨):نظريات نشأة اللغة عند العرب،مجلة المورد ،مج ٧ – عدد ٣.
- الآمدي،علي بن محمد(٢٠٠٣): الإحكام في أصول الأحكام ، دار الصميعي ، الرياض .
- الأندلسي ، ابن حزم(١٩٨٣): الإحكام في أصول الأحكام ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت.
- أنيس ، د . إبراهيم (١٩٩٩): الأصوات اللغوية ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ١٩٩٩
- (١٩٨٤) : دلالة الألفاظ ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة .
– (٢٠٠٣) :من أسرار اللغة : مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة .
- بالمر ، أف . أر (١٩٨٥) : علم الدلالة ، ترجمة : عبد المجيد الماشطة ، الجامعة المستنصرية ، بغداد .
- بشر ، د . كمال (٢٠٠٠): علم الأصوات ، دار غريب ، القاهرة .
- بشري ، د . كمال (١٩٨٨): علم اللغة المبرمج ، ط ٢ ، مط .جامعة الملك سعود،الرياض .
- التوحيدي ، أبو حيان ، ومسكويه ، علي بن محمد(٢٠٠١) : الهوامل والشوامل ، الهيأة العامة لقصور الثقافة ،القاهرة .
- الجاحظ (١٩٨٥): البيان والتبيين ، ط ٥ ، مكتبة الخانجي ، القاهرة .
- (١٩٦٩) : الحيوان ، ط ٣ ، مكتبة مصطفى البابي الحلبي ، القاهرة .
- محمد ، د . علاء جبر(٢٠٠٦) : المدارس الصوتية عند العرب: دار الكتب العلمية ، بيروت ٢٠٠٦ .
- الجرجاني ، الشريف (٢٠٠٣): التعريفات ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت .
- ابن جعفر ، قدامة (د.ت): نقد الشعر : دار الكتب العلمية ، بيروت .
- الجلالي ، محمد حسين (١٤٢٢): فهرس التراث،منشورات دليل ما ، مط . نكارش ،قم .
- ابن جني ، عثمان(١٩٩٠):الخصائص،تحـ:محمد علي النجار،ط٤،دار الشؤون الثقافية العامة،بغداد .

- جومسكي ، نعوم(٢٠٠٥) : اللغة والعقل اللغة والطبيعة ، ترجمة : رمضان مهلهل سدخان ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد .
- حاجي خليفة(٢٠١٠) : سلم الوصول إلى طبقات االفحول ، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية ، استانبول .
- حجازي ، د . محمود فهمي(١٩٩٢) : علم اللغة العربية ، مكتبة غريب ، القاهرة .
- حسان ، د . تمام(٢٠٠٤):الأصول ، عالم الكتب ، القاهرة .
–(٢٠٠١) : اللغة بين المعيارية والوصفية : عالم الكتب ، القاهرة .
- (٢٠٠٤) : اللغة العربية معناها ومبناها : ط ٤ ، عالم الكتب ، القاهرة .
- الحسن ، د . علي حاتم(٢٠٠٢) : التفكير الدلالي عند المعتزلة ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد .
- الحلي ،ابن المطهر(١٤٢٦):تسليك النفس إلى حظيرة القدس،مؤسسة الإمام الصادق ،قم .
- – (١٤٣٠) :معارج الفهم في شرح النظم : مجمع البحوث الإسلامية ، مشهد .
- الحمادي ، يوسف(١٩٩٠) : النحو في إطاره الصحيح ، مكتبة مصر ، القاهرة .
- الحمد ،د.غانم(٢٠٠٢):المدخل إلى علم أصوات العربية،مط. المجمع العلمي العراقي،بغداد .
- الحموي ، ابن حجة(١٢٧٣هـ) : خزانة الأدب ، مط . بولاق ، القاهرة .
- الخفاجي ، ابن سنان(١٩٨٢) : سر الفصاحة ، دار الكتب العلمية ، بيروت .
- دي سوسور ، فردنان(١٩٨٥) : علم اللغة العام، ترجمة: د. يوئيل يوسف عزيز ، دار آفاق عربية ، بغداد .
- زوين ، د . علي(١٩٨٦) : منهج البحث اللغوي بين التراث وعلم اللغة الحديث ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد .
- السامرائي ، د . فاضل (٢٠٠٢): معاني النحو : ط ٢ ، دار الفكر ،عمان – الأردن .
- السجلماسي ، قاسم بن محمد(١٩٨٠) : المنزع البديع ، مكتبة المعارف ، الرباط .
- سلمان ، د . عدنان محمد(١٩٩١): دراسات في اللغة والنحو،دار الحكمة ،جامعة بغداد .
- ابن سينا(٢٠٠٧) : أسباب حدوث الحروف ، الجزيرة للنشر والتوزيع ، القاهرة .
- سيد يوسف ، د . جمعة(١٩٩٠) : سيكولوجية اللغة والمرض العقلي ، سلسلة عالم المعرفة ، الكويت .
- السيوري ، المقداد (١٤٠٥هـ): إرشاد الطالبين ، منشورات مكتبة المرعشي ، قم .
– (١٤٢٤هـ)اللوامع الإلهية في المباحث الكلامية : مجمع الفكر الإسلامي ، قم .
- الشهيد الثاني(١٤٢٩هـ) : تمهيد القواعد ، ط ٢ ، مركز الإعلام الإسلامي ، قم .
- الصغير ، د . محمد حسين(١٩٨٨) : تطور البحث الدلالي دراسة في النقد البلاغي واللغوي ، مط . العاني ، بغداد .
- الصيغ،د.عبد العزيز(١٩٩٨):المصطلح الصوتي في الدراسات العربية، دار الفكر ، دمشق .
- الطوسي ، نصير الدين(١٣٧٢هـ) : كشف المراد في تجريد الاعتقاد ، مط . أمير ، قم .
- عبابنة ، د . يحيى ، والزعبي ، د . آمنة(٢٠٠٥) : علم اللغة المعاصر مقدمات وتطبيقات ، دار الكتاب الثقافي ، اربد – الأردن .
- عبد التواب ، د . رمضان(١٩٨٣) : التطور اللغوي – مظاهره وعلله وقواعده ، مكتبة الخانجي ، القاهرة .
- العزاوي ، د . نعمة(٢٠٠٤):أبو حيان التوحيدي لغويا ،دار الشؤون الثقافية العامة ،بغداد.
- عمايرة ، د . خليل(١٩٨٧): في التحليل اللغوي ، مكتبة المنار ، الزرقاء – الأردن .
- ابن عمر ، د . محمد صالح(١٩٨٦) : الثورة التكنولوجية واللغة ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد .
- القيرواني ، ابن رشيق(٢٠٠٣): العمدة في نقد الشعر وتمحيصه ، دار صادر ، بيروت .
- الكاتب ، علي بن خلف(١٩٩٠): مواد البيان ، مجلة المورد ، مج ١٧ – ١٩ .
- الكرمي ، مرعي بن يوسف الحنبلي(٢٠٠٤):القول البديع في علم البديع،دار كنوز إشبيليا، الرياض .
- ماريو باي(١٩٩٨):أسس علم اللغة، ترجمة:د .أحمد مختار عمر،ط٨،عالم الكتب، القاهرة.
- محمد ، د . علاء جبر(٢٠٠٦) : المدارس الصوتية عند العرب: دار الكتب العلمية ، بيروت .
- الشيخ المفيد(١٤١٣هـ) : أوائل المقالات ، مط . مهر ، قم .
- ابن منقذ ، أسامة(١٩٦٠): البديع في نقد الشعر ، الإدارة العامة للثقافة ، القاهرة ١٩٦٠ .
- ناصر ، د . بتول قاسم(١٩٩٩) : دلالة الإعراب لدى النحاة القدماء، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد .
- ابن النديم (٢٠٠٩): الفهرست ، مؤسسة الفرقان للتراث ، لندن .
- النعيمي ، د. حسام(١٩٩٨): أبحاث في أصوات العربية،دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد .
- (١٩٨٩) :أصوات العربية بين التحول والثبات ، دار الحكمة، جامعة بغداد .
- نور الدين ، د . عصام(٢٠٠٣): محاضرات في فقه اللغة :دار الكتب العلمية ، بيروت .
- النيسابوري ، أبو رشيد(١٩٧٩) : المسائل في الخلاف بين البصريين والبغداديين ، معهد الإنماء العربي ، طرابلس – ليبيا ، بيروت – لبنان .
- الياسري ، د.عبد الكاظم(٢٠٠٧) :دراسات في اللغة والنحو ، دار الضياء ،النجف الأشرف.

References

- Alamidi, A. (2003) . judgments in the origins of judgments. riyadh.
- Alandalusi, I.(1983). judgments in the origins of judgments. the new afaq for publishing house. beirut.
- Alhnbalii, M.(2004). alqool albadie in science albdyee.al-kenouz house for publishing , riyadh .
-Alnuaimi, H.(1989). arab voices between transformation and affirmation. dar alhekma, university of baghdad.
- Alnuaimi, H.(1998). researches in arabic voices . general cultural affairs publishing house.
-Ababneh, H.& Alzu'bi, A.(2005). contemporary linguistics introductions and applications: dar al kitab al thaqafy, irbid – jordan.
-Abdel Tawab, R.(1983) linguistic development – manifestations, ills and rules. al khanji bookshop, cairo.
-Alhamad, G.(2002). almudkhal 'iilaa eilm aswat alearabia. iraqi science academy, baghdad,
-Alhamady, Y.(1990).grammar in the correct form.eygept library. egyptian house for publishing .cairo.
-Alhasan, A.(2002). almutazalah `s semantic thinking. general cultural affairs house.baghdad.
-Alhily , A.(1426 h). -self-wiring to the jerusalem barn. imam al-sadiq foundation. qim
-Alhily , A.(1430).maarch alfahem in sharah alnadhem. complex of the islamic researches.mashahed.
- Alhamawi, I A.(1273 *h)*.kkizanat al'adab waghayat al'arb .boulak, cairo.
-Ali, Z.(1429 ah). -preface of the rules: the second martyr. , printing and publishing office, islamic media center.
-Aljahez, A.(1969).alhywan, , 3rd edition, mustafa al-babi al-halabi library, cairo
-Al-jahiz, A.(1985). albaiyan and altabian. 5th floor. khanji bookshop.cairo.
-Al-jalali, M.(1422). fehres almerath. publications of a guide, narkash.qim
-Aljarjani, S.(2003). altarfat. arab heritage revival house. beirut.
-Alkateb, A.(1990-pp,17-19).albiayan materials.resources journal.volume,17-19
-Alkhalifah, H. Aleithmani,m.(2010).salam alwusul to tabaqat aalfuhwl .research center for islamic history, arts and culture, istanbul .
-Alkhfajy ,s. abd allah,m.(1982h).ser alfasaha, dar alkutub aleilmiat , beirut .
- bialmara, A(1985). eilm aldalalt:. baghdad.
-Almasry, W.(1957). badie al-quran .the egyptian renaissance . cairo.
-Alnisaburi, A.(1979).almasaal in the khalaph among the basrah and baghdad people. arab development institute, tripoli – libya, beirut – lebanon
-Alsaamerai, F.(2002) .grammar meanings .thinking house for publishing .2nd edidtion.oman. jordan.
-Alsagher, M.(1988) evolution of semantic research study in rhetorical and linguistic criticism. baghdad.

-Alsayuri, A.& alrajayiy, M (1405 h) . irshad altalibin. al marashi publications library
-Alsayuri, A.(1424 h). islamic thought complex, qom.
-Alseigh, A .(1998).alustaliah alsouty in arabic studies. dar alfakher.domascus.
-Alsejlamasy ,A.(1980).from the secret of language .almaaraf library. riyadh
-Altaweedy,A .& Musequiah, A.(2001).alhawamel and alshawamel . general committee for culture palaces, al-amal printing and publishing co., cairo.
- Al-azzawi, N.(2004) .linguistics. general cultural affairs publishing house.
-Altuwsii, N.(1372 h). takshif almurad eanniat tajrid aleaqidt. 'amir.qim.
-Alyaseen, M.(1978).methods in growing the languages among arabs.resources journal .volume,7,issue,3
-Alyasiri, A.(2007). studies in language and grammar. dar al-dia, najaf,
-Anis, I. (1999)language sounds., anglo-egyptian library .cairo .
-Bay, M. (1998). fundamentals of linguistics. 8th floor, book world, cairo.
-Beshr, K.(2000). phonetics. dar gharib, cairo.
-Beshri, K.(1988). programmed linguistics. king saud university, riyadh.
-De sussure, F.(1985). general linguistics. arab afaq house for publishing.
-Eimayrat, K.(1987). - in linguistics analysis. maktabat almanar , alzurqa' - jordan
-Gomsky, N.& Sedkhan,r.(2005). _ allughat waleaql wallughat waltabieat. house of public cultural affairs.
-Hassan, T.(2001). allughah bayn almieyariat walwasfiat. , world of books, cairo.
-Hassan, T.(2004). assets-the study of linguistic thought in the arab language. world of books. cairo
-Hassan, T.(2004). maenaa allughat alearabiat wahaykaliha. 4, international books, cairo
-Hijazi, M.(1992). arabic linguistics. ghareeb library, cairo.
-Ibn Sina, A,& Saad ,t,(2007). reasons for the occurrence of the letters. . al jazeera publishing and distribution. cairo.
-Ishaq,i.&sayed.(2009)alfihrist. , al-furqan heritage foundation, london.
-Jaafer , Q.& Khagagy,m.(377 h).poetry criticism.house of scientific books. beirut.
-Kairouani, H.& Hatoum,t. (2003). alomeda in the criticism of poetry and scrutiny. dar sader, beirut
-Muhammad, E.(2006). madaris alsawt alearabi.beirut.
-Munqid, A.& Abdul Majeed,h.(1960). al badee in poetry criticism. ministry of culture and national guidance. cairo.
-Nasser, B.(1999). dilalat al'iierab in alnahat alqadama'
-Noureddine,e.(2003). dar al-kuttab al-ulmia, beirut.
-Omar, M.(1986). technological revolution and language. , general cultural affairs house, baghdad
-Osman,i.*&* Al-Najjar,*m.(* 1990).alkhazas. 4th floor, general cultural affairs house, baghdad.
-Salman, A.(1991). studies in language and grammar. , dar al-hikma, baghdad university.

-Sheikh Al-Mufid,m & Al-Ansari,i. (1413). the early articles.meher .qim..public cultural affairs house, baghdad.
-Yousef, S.(1990) language psychology and mental disease ,knowledge science ,alkwait
-Zwain ,A.(1986).curriculum in the linguistics research between the heritage and the modern linguistics..house of the general cultural affairs.baghdad

Comparison between spoken and sing language features in heritage and modern lesson

Assistant Prof. Dr. Ali Muhsen Badi

University Of Summer - College Of Basic Education

a.badi@uos.edu.iq

Abstract

The communicative media have occupied a large space in the humans thinking since the first stage of his/her consciousness of these media and their effects on the life . Although spoken language was the center of systematic attention and attracted a lot of linguistic efforts, unfortunately the other types of communicative media didn’t take a great deal of attention and on the top of these media is the sing language either natural or artificial on . The object of the study is to display the efforts on sing language when it is associated with spoken language . The main object of this study is to observe the ancient and modern scientific achievement which is limited to the balance between spoken and sign language and the results of these efforts because the detailed information that had been included between spoken and sign language represent the core that can be concluded of independent studies .

Key Words : Comparison , spoken , sing language .